

خصائص النبي محمد ﷺ في ضوء سورتي الضحى والشرح
دراسة موضوعـــــــية

إعداد

د/ عمر محمد أبو شعيشع أحمد

مدرس التفسير وعلوم القرآن

كلية الدراسات الإسلامية والعربية بدسوق

خصائص النبي محمد ﷺ في ضوء سورتي الضحى والشرح دراسة موضوعية

عمر محمد أبو شعيشع أحمد

قسم التفسير وعلوم القرآن كلية الدراسات الإسلامية والعربية بدسوق

البريد الإلكتروني: Omerm9729@gmail.com

الملخص:

يهدف هذا البحث إلى دراسة قضية خصائص النبي محمد ﷺ في سورتي الضحى والشرح، وكان منهجي فيه الدراسة الموضوعية؛ لإبراز وجه الإعجاز القرآني؛ بإبراز أفضلية النبي محمد ﷺ على سائر الأنبياء والمرسلين، وإنما وقع الاختيار على دراسة هذا الموضوع في سورتي الضحى والشرح دون غيرهما ؛ لأن هاتين السورتين تميزتا عن غيرهما من سور القرآن بالإشادة بخصائص النبي ﷺ بصفاته الجليلة، والتي أبرزتها السورتين؛ بل صارت هذه الخصائص هي المحور الرئيس الذي ارتكزتا عليه، موضحا أن يكون هذا البحث وسيلة لدعوة غير المسلمين إلى الإسلام؛ ليعلموا حقيقة رسالة النبي محمد ﷺ، وأن الله أرسله رحمة للعالمين، مبرزا مقام النبي ﷺ وبيان فضله و خصائصه ؛ ليزداد المؤمن محبة له، وتأسيا به، وتعظيما له، مساهما في الدفاع عن شخص النبي ﷺ أمام الإساءات والافتراءات التي بثها المغرضون من أعداء الإسلام حول شخصه ﷺ، لنستلخص أن اليتم والفقر نقص في حق الخلق، فلما صار محمد ﷺ مع هذين الوصفين أكرم الخلق؛ كان ذلك قلبا للعادة، وكان من جنس المعجزات، كما أزال الله عن نبيه كل ما كان يتحرج منه من عادات أهل الجاهلية التي لا تلائم ما فَطره الله عليه من الزكاة والسمو؛ فوضع عنه وزره، وأغناه بالقناعة، بحيث لا يجد في قلبه سوى ربه، فضلا عن كون الضحى التي يتلوها الليل الساجي رمزية إلى تغير أحوال الدنيا ، فإن كان

الإنسان يبغي الرضوان الكامل الذي لا تكدره المنغصات؛ فلن يجده في هذه الدنيا قط؛ وإنما العطاء الدائم في الآخرة حيث النعيم المقيم الذي لا يحول ولا يزول، وقد كان النبي قبل البعثة ضالا ـ لا دين سماوي يهديه ـ وكان في شبابه فقيرا (عائلا)، كل هذا بمثابة الليل الساجي في التغير الكوني المعهود.. فكان أن هداه الله بهذا الدين القويم، وأغناه الله، ورزقه الزوج الصالحة، والمال ـ وهذا بمثابة الضحى.

وكان مما اقترحته من التوصيات في الدراسات القرآنية أن يطرقوا باب القرآن الكريم في بيان فضل الأنبياء والمرسلين؛ فهم صفوة خلق الله أجمعين.

الكلمات المفتاحية: خصائص ـ الضحى ـ الشرح ـ عائلا ـ اليتم.

Characteristics of the Prophet Muhammad Peace be upon him in the light of Surat Al-Duha and Al-Sharh Objective study

Omar Muhammad Abu Shaisha Ahmed
Department of Interpretation and Qur'anic Sciences, Faculty of Islamic and Arabic Studies, Desouk
Email:Omerm9729@gmail.com

Abstract:

This research aims to study the issue of the characteristics of the Prophet Muhammad in Surat Al-Duha and Al-Sharh, and my methodology was the objective study. To highlight the face of the Quranic miracles; By highlighting the superiority of the Prophet Muhammad over all other prophets and messengers, but rather the choice fell on studying this subject in Surat Al-Duha and Al-Sharh without others; Because these two chapters were distinguished from other chapters of the Qur'an by praising the characteristics of the Prophet, may God bless him and grant him peace, with his great qualities, which were highlighted by the two chapters. Rather, these characteristics became the main axis on which they were based, explaining that this research should be a means to invite non-Muslims to Islam. To let them know the true message of the Prophet Muhammad, may God's prayers and peace be upon him, and that God sent him as a mercy to the worlds, highlighting the position of the Prophet, may God bless him and grant him peace, and explaining his merits and characteristics. So that the believer increases his love for him, following him, and glorifying him, contributing to the defense of the person of the Prophet, peace be upon him, in front of the abuses and

fabrications spread by the malicious enemies of Islam about his person, may God’s prayers and peace be upon him. This was an overturning of habit, and it was from the kind of miracles, as God removed from his Prophet all that he was embarrassed by from the habits of the people of ignorance that did not fit what God had instilled in him of zakat and highness; So he relieved him of his burden, and enriched him with contentment, so that he finds nothing in his heart except his Lord, in addition to the fact that the forenoon that is followed by the sleeping night is symbolic of the change in the conditions of the world. he will never find him in this world; Rather, permanent giving is in the Hereafter, where the resident bliss that does not shift or disappear, and the Prophet before the mission was astray - no heavenly religion to guide him - and in his youth he was poor (family). The right religion, and God enriched him, and provided him with a righteous wife and money - and this is equivalent to the sacrifice. Among the recommendations I suggested in Quranic studies was that they knock on the door of the Noble Qur’an in explaining the virtue of the prophets and messengers. They are the elite of all God's creation.

Keywords: **characteristics - al-Duha - explanation - family - orphan**

بسم الله الرحمن الرحيم

مقـــــدمـــــــة

الحمد لله العزيز الوهاب؛ الذي أنزل على عبده ورسوله محمدٍ الكتاب، هدًى وذكرًى لأولي الألباب، وحفظه من التغيير والتبديل مهما طال الدهر وتوالت الأحقاب، وجعله معجزة خالدة يشاهدها من عاش في زمن الوحي ومن غاب، فهو حجة للمؤمن الأواب، وحجة على الكافر المرتاب، وهو حبل الله المتين والذكر الحكيم والصراط المستقيم، من سلكه وعمل به فله البشرى والثواب؛ ومن أعرض عنه فله معيشة ضنكا وفي الآخرة سوء العذاب.

وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد المصطفى من أطهر الأنساب وأشرف الأحساب الذي أيده ربه بالمعجزات الباهرات وعلى آله وصحبه الأكرمين خير أهل وأصحاب؛ الذين وعدهم ربهم ﷻ بالنصر والتمكين، وأورثهم الجنة وحسن المآب.

وبــعـــد

من فضل الله على أمتنا أن شرفنا بإنزال خير كتبه، وإرسال خير رسله، وأفضل خَلْقه محمد ﷺ، فهو الرسول المُصطفى، والنبي المُجْتَبَى، ختم الله به الأنبياء، واختصه دون غيره من الرسل بالفضائل والهبات، تشريفا وتكريما له، مما يدل على جليل قدره وعلو منزلته عند ربه، **قال تعالى:** ﴿ تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ ﴾[1] قال الزمخشري[2]: في قوله: ﴿وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ﴾:

---

(١) البقرة: ٢٥٣.

(٢) هو أبو القاسم محمود بن عمر بن الخوارزمي الزمخشري المعتزلي، كان تشد إليه =

"والظاهر أنه أراد محمداً ﷺ لأنه هو المفضل على سائر الأنبياء، حيث أوتى ما لم يؤته أحد من الآيات المتكاثرة المرتقية إلى ألف آية أو أكثر، ولو لم يؤت إلا القرآن وحده ؛ لكفى به فضلا منفياً على سائر ما أوتى الأنبياء،؛ لأنه المعجزة الباقية على وجه الدهر دون سائر المعجزات"(١).

وقد جاءت هذه الدراسة القرآنية لإبراز خصائص النبي ﷺ ومكانته بما أشادت به سورتا الضحى والشرح من بيان خصائصه ﷺ، وقد وسمتها بعنوان : [خصائص النبي محمد ﷺ في سورتي الضحى والشرح (دراسة موضوعية)].

ويرجع أسباب اختياري للموضوع إلى عدَّة أسباب، أبرزها ما يلي:

أـ أن يكون هذا البحث وسيلة لدعوة غير المسلمين إلى الإسلام؛ ليعلموا حقيقة رسالة النبي محمد ﷺ، وأن الله أرسله رحمة للعالمين.

ب . تجلية مقام النبي ﷺ وبيان فضله و خصائصه ؛ ليزداد المؤمن محبة له، وتأسيا به، وتعظيما له.

ج . الإسهام في الدفاع عن شخص النبيﷺ أمام الإساءات والافتراءات التي بثها المغرضون من أعداء الإسلام حول شخصه ﷺ.

وإنما وقع الاختيار على دراسة هذا الموضوع في سورتي الضحى والشرح دون غيرهما ؛ لأن هاتين السورتين تميزتا عن غيرهما من سور

=

الرحال في فنونه، ولد سنة ٤٦٧هـ، وله من التصانيف البديعة: "الكشاف" في تفسير القرآن العزيز، والمحاجاة بالمسائل النحوية و"أساس البلاغة" في اللغة، وكان قد سافر مكة، وجاور بها زماناً، فصار يقال له: جار الله توفي سنة ٥٣٨هـ- ينظر: وفيات الأعيان (٥/١٦٩)، وطبقات المفسرين للسيوطي (ص: ١٢٠).

(١) الكشاف (١/ ٢٩٧).

القرآن بالإشادة بخصائص النبيﷺ بصفاته الجليلة، والتي أبرزتها السورتان؛ بل صارت هذه الخصائص هي المحور الرئيس الذي ارتكزتا عليه.

أما عن خطتي في البحث فكانت على النحو التالي:

قسمت البحث إلى مقدمة وتمهيد ومبحثين وخاتمة.

أما المقدمة فضمَّنتها أسباب اختيار الموضوع، وخطة البحث، ومنهجه.

أما التمهيد، فقد عرفت فيه بسورتي الضحى والشرح، من خلال ما يلي:

١ـ مفهوم الخصائص.

٢ـ أهم المصنفات في خصائص النبيﷺ.

٣ـ بين يدي سورتي الضحى والشرح، وذلك من خلال الوقوف على أمور يمكن حصرها فيما يلي:

أ ـ أسماء السورتين.

ب ـ عدد آياتهما، وكلماتهما، وحروفهما.

جـ ـ مكية السورتين أو مدنيتهما.

د ـ هدف السورتين.

هـ ـ المناسبة بين السورتين

وأما المبحث الأول فعنوانه: خصائص النبي محمد ﷺ في سورة الضحى، ويشتمل على خمسة مطالب:

المطلب الأول: وعد الله لنبيه ﷺ أن الآخرة خير له من الدنيا وما فيها.

المطلب الثاني: إعطاء النبي ﷺ من النعم حتى يرضى.

المطلب الثالث: إيواء النبي ﷺ من اليتم.

المطلب الرابع: هدايته ﷺ من الضلالة.

المطلب الخامس: إغناؤه ﷺ بعد الفقر.

وأما المبحث الثاني فعنوانه: خصائص النبي محمد ﷺ في سورة الشرح، ويشتمل على ثلاثة مطالب:



المطلب الأول: شرح صدر النبي ﷺ.

المطلب الثاني: مغفرة ذنوبه وتطهيره من أدرانها.

المطلب الثالث: رفع ذكر النبي ﷺ إلى قيام الساعة.

وأما الخاتمة فذكرت فيها أهم النتائج والتوصيات.

وأخيرا: الفهارس وهي كالتالي:

. فهرس المصادر والمراجع. - فهرس الموضوعات.

وسلكت في هذا البحث منهج الدراسة الموضوعية، واتبعت فيه الخطوات التالية:

. عزو الآيات القرآنية بذكر السورة ورقم الآية.

. تخريج الأحاديث النبوية الشريفة.

. التوفيق بين الآراء ما أمكن.

. توثيق النقول والتعليق عليها.

. الترجمة للأعلام عند ورودها أول مرة.

. ذكر بعض النكات البلاغية؛ وإبراز بعض أسرار التعبير باللفظ القرآني.

وبعد فهذا جهدي.. فإن أصبت فبفضل الله وتوفيقه ومنته، وإن كانت الأخرى فحسبي أني بشر مني الزلل والنسيان . واللهَ أسأل العفو والغفران.

دكتور

عمر محمد أبو شعيشع

تمهيد

يطيب لي أن أبدأ بتمهيد أحاول من خلاله إماطة اللثام عن مفهوم الخصائص، وأشهر من ألف في الخصائص النبوية، ثم بين يدي السورتين الكريمتين موضحا أهدافهما البارزة، ومقاصدهما العالية.

لقد ذكر العلماء من أهل السير أن معرفة خصائص النبيﷺ ضرورية لمعرفة مكانته عند الله ﷻ، وفضله على غيره من الأنبياء، ولما خصه الله به من أحكام.

أما عدد هذه الخصائص عموما.. فكثير، ذُكِرت في ثنايا كتب الحديث والتفسير والسير والطبقات والتواريخ ومقدمات أبواب النكاح في كتب الفقه، وقد أفرد العلماء لها كتبا خاصة اهتمت ببيان المسائل التي اختص بها النبيﷺ من الناحيتين التشريعية والتفضيلية، وهذه الخصائص على أربعة أنواع:

أ ـ "ما اختص به في ذاته في الدنيا؛ مثل كونه خاتم النبيين وأفضلهم، والإسراء والمعراج.

ب ـ ما اختص به هو وأمته في شرعه في الدنيا مثل إحلال الغنائم.

ج ـ ما اختص به في ذاته في الآخرة مثل كونه أول من تنشق عنه الأرض، وأول من يقرع باب الجنة.

د ـ ما اختص به في أمته في الآخرة مثل بعث أمته غرا محجلين من آثار الوضوء"[١].

١ ـ مفهوم الخصائص

وردت لفظة (الخصائص) في كلام الزمخشري[٢]، وسمى ابن جني

---

(١) ينظر: غاية السول في خصائص الرسول (٢٥٨ ـ ٢٦٠).

(٢) ينظر:أساس البلاغة (١/ ١٦).

أحد كتبه «الخصائص». و(الخصائص) مفردها(خصيصة) من (خصَّ) "والخاء والصاد أصل مطرد منقاس، وهو يدل على الفرجة والثلمة، وهي الصّفة الَّتِي تميز الشَّيْء وتحدده، يقال: خص الشَّيْء خُصُوصا نقيض عَم، وَفُلَانًا أعطَاهُ شَيْئا كثيرا وَفُلَانًا بِكَذَا خصا وخصوصا وخصوصية وخصيصي؛ آثره بِهِ على غَيره وَكَذَا لنَفسِهِ اخْتَارَهُ فَهُوَ خَاص، و (الخصاصة) و (الخصاص) الفقر"[(١)].

قال الراغب الأصفهاني[(٢)]: "خص : التخصيص والاختصاص والخصوصية والتخصص تفرد بعض الشيء بما لا يشاركه فيه الجملة، وذلك خلاف العموم والتعميم"[(٣)].

وتعريف الخصائص بما يتعلق بالرسول ﷺ: "هي الأمور التي اختص الله ﷻ بها نبيه ﷺ تعظيما له وتكريما، وفائدة هذه الخصائص أن يعرف المتتبع لشريعة المصطفى ما لا يسوغ الاقتداء به من أمور اختص بها"[(٤)] .

٢ـ أهم المصنفات في خصائص النبيﷺ.

لقد أُلفت كتب مهمة في الشمائل المحمدية احتوت على الخصائص، أشهرها:

---

(١) ينظر: مختار الصحاح (ص: ٩١)، مادة (خصَّ)، مقاييس اللغة (٢/ ١٥٢)، مادة (خصَّ)، و المعجم الوسيط (١/٢٣٧، ٢٣٨)، مادة (خصَّ).

(٢) هو العلامة المتفنن أبو القاسم بن الحسين بن محمد الأصفهاني، كان من أذكياء المتكلمين، وتصانيفه نافعه ومن اشهرها : مفردات القرآن ، و الذريعة إلى مكارم الشريعة، هو من أعيان القرن الخامس الهجري، توفي سنة ٥٠٢ هـ ينظر: سير أعلام النبلاء (١٣/ ٣٤١)، وطبقا المفسرين للداودي (٦/١٤٤).

(٣) المفردات (ص: ١٤٩).

(٤) السيرة الحلبية (١/٩٧٩).

١- الشمائل النبوية والخصائص المصطفوية[للحافظ الترمذي ت٢٧٩هـ] .
٢- شمائل النبي [لأبي العباس المستغفري ت٤٣٢هـ] .
٣- كتاب الشفا بتعريف حقوق المصطفى[للقاضي عياض اليحصبي ت: ٥٤٤هـ] .
٤- كتاب نهاية السول في خصائص الرسول [أبو الخطاب عمر بن الحسن بن علي بن محمد الكلبي المعروف بابن دحية ت ٦٣٣هـ].
٥- شمائل الرسول ودلائل نبوته وخصائصه" لابن كثير (ت٧٧٤هـ).
٦- الأنوار بخصائص النبي المختار[لابن حجر العسقلاني ت: ٨٥٢هـ].
٧- نموذج اللبيب في خصائص الحبيب" لجلال الدين السيوطي (ت ٩١١هـ).

وهذه المصنفات كما نلاحظ تركز على جوانب صفات النبي ﷺ وشمائله في ضوء ما جاء في السنة النبوية عموما.

٣- بين يدي السورتين الكريمتين

أولا: تسمية السورتين.

بالنظر فيما قاله أهل العلم في قضية أسماء السور هل هي توقيفية أم توفيقية، وتعدد أسماء السورة الواحدة تبين أن الراجح من كلامهم أن أسماء السور أمر توقيفي، لا مجال للاجتهاد فيه، قال السيوطي: "السورة الطائفة المترجمة توقيفا أي المسماة باسم خاص بتوقيف من النبي ﷺ، وقد ثبت جميع أسماء السور بالتوقيف من الأحاديث والآثار"[(١)].

"وقد يكون للسورة اسم وهو كثير، وقد يكون لها اسمان كسورة (البقرة) يقال لها فسطاط القرآن لعظمها وبهائها، و(آل عمران) يقال اسمها في التوراة طيبة، والنحل تسمى سورة النعم لما عدد الله فيها من النعم على

(١) الإتقان (١/ ١٨٦).

عباده وسورة: {حم عسق} وتسمى الشورى وسورة الجاثية وتسمى الشريعة وسورة محمد ﷺ، وتسمى القتال وقد يكون لها ثلاثة أسماء كسورة المائدة والعقود والمنقذة"(١).

أولا: سورة الضحى.

ـ سميت في أغلب التفاسير (سورة الضحى)، وفي «صحيح البخاري» «وسورة والضحى» بإثبات الواو.

وقد نزل الوحي بها على النّبيّ ﷺ بعد انقطاعه لعدّة أيام، فضاق صدر النّبيّ ﷺواشتدّ كربه، وظنّ أن الوحي قد هجره.. وكان الفرج الرّبانيّ بإنزال الوحي الأمين بهذه السّورة الكريمة بلمستها الحانية على قلب المصطفى ﷺ لتخفّف عنه ما نزل به من آلام وأوجاع وأحزان، وتسكب فيه الأمل والرّضا، فكانت له من ربّه تسلية وتسرية ونجاء وطمأنينة(٢).

ثانيا: سورة (الشرح)

من السور التي تعددت أسماؤهاـ سورة الشرح ـ وبالرجوع إلى كلام أهل العلم يتبين أن هذه السورة لها ثلاثة أسماء ففي صحيح البخاري(٣)،

---

(١) ينظر: البرهان في علوم القرآن (١/ ٢٦٩) باختصار.

(٢) عن جُنْدُبَ بْنَ سُفْيَانَ، قَالَ: «اشْتَكَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَلَمْ يَقُمْ لَيْلَتَيْنِ – أَوْ ثَلاَثًا – »، فَجَاءَتْ امْرَأَةٌ فَقَالَتْ: يَا مُحَمَّدُ، إِنِّي لَأَرْجُو أَنْ يَكُونَ شَيْطَانُكَ قَدْ تَرَكَكَ، لَمْ أَرَهُ قَرِبَكَ مُنْذُ لَيْلَتَيْنِ – أَوْ ثَلاَثَةٍ – فَأَنْزَلَ اللَّهُ ﷻ: {وَالضُّحَى وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى، مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى} [الضحى: ١ـ٣]. أخرجه البخاري في صحيحه، كِتَابُ تَفْسِيرِ القُرْآنِ ،بَابُ {مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى} [الضحى / ٣]، ح (٤٩٥٠)، (٦/ ١٧٢)، ومسلم كِتَابُ الْجِهَادِ وَالسِّيَرِ، بَابُ مَا لَقِيَ النَّبِيُّ ﷺ مِنْ أَذَى الْمُشْرِكِينَ وَالْمُنَافِقِينَ ح (١١٥) ، (٣/ ١٤١٩).

(٣) ينظر: صحيح البخاري، كِتَابُ تَفْسِيرِ القُرْآنِ، بَابُ {مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى} [الضحى/٣ (٦/ ١٧٢).

وجامع الترمذي (سورة ألم نشرح)[1]، وفي بعض التفاسير (سورة الانشراح)[2]، لكنها سميت في أغلب التفاسير (سورة الشرح)[3].

وهذه الأسماء متقاربة من (شرح)، ودلالة التسمية بها تشير إلى تلك النعمة التي أنعم الله بها على نبيه ﷺ.

ب ـ عدد آياتهما، وكلماتهما، وحروفهما.

أولا: سورة الضحى

نزلت سورة الضّحى على النّبيّ محمّد ﷺ ، بعد سورة الفجر في الجزء الثّلاثين، وترتيبها السّورة الثّالثة والتّسعون، وتعتبر من قصار المفصّل، عدد آياتها إحدى عشرة آية، وكلماتها (أربعون)، وحروفها (مائة واثنان وسبعون)[4].

ثانيا: سورة الشرح

وهي ثماني آيات، وكلماتها(سبع وعشرون كلمة)، وحروفها(مائة وثلاثة أحرف)[5].

---

(١) ينظر: سنن الترمذي بَاب وَمِنْ سُورَةِ أَلَمْ نَشْرَحْ ،(٥/ ٤٤٢).

(٢) ينظر: مفاتيح الغيب (٣١/ ٢٠١)، تفسير الإيجي (٤/ ٥٠٦)، وزاد المسير (٩/ ١٦٢)، و البحر المحيط (٨/ ٤٨٣).

(٣) ينظر: جامع البيان (٤٩٢/٢٤)، تفسير البغوي (٥/ ٢٧٤)، تفسير النسفي (٣/ ٦٥٦)، إرشاد العقل السليم (٩/ ١٧٢) وغيرهم.

(٤) ينظر: غرائب القرآن ورغائب الفرقان (٦/ ٥١٤)، ومرشد الخلان ص ٢١٠، و البيان في عد آي القرآن (ص: ٢٤٦)، تفسير المراغي (٣٠/ ١٨٢).

(٥) ينظر: لباب التأويل: (٤٤١/٤)، والسراج المنير (٥٥٤/٤)، والجامع لأحكام القرآن (٢٠/ ١٠٤)، مرشد الخلان ص ٢١٠، والفرائد الحسان ص٧٤.

د ـ هدف سورتي الضحى والشرح

إن هدف سورة الضّحى الأسمى تثبيت النّبيّ الكريم ﷺ وإبعاد القلق والحزن عنه، والتّأكيد له بأنّ الذي رعاه وحماه سابقًا لن يتخلّى عنه لاحقًا، ووعد ربّه ووعده الحقّ، فقد وعده ربه في الضحى بأنّ الآخرة ستكون خير له من الأولى، والتي لقي فيها ما لقي من اليتم وضنك العيش ومرارته، ولسوف يكون عطاء ربّه له بلا حدود، حتّى يرضى رضاء أبديًّا، قال تعالى: ﴿ وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ ۝ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ ۝ ﴾[1]

ثمّ ينتقل الخطاب الرّبانيّ من الخاصّ إلى العام من النّبيّ ﷺ إلى كلّ مؤمن، بأن يسترجع شريط حياته ويستذكر؛ كم مرّ بشدائد وخطوب، ثمّ أتاه الفرج من الله تعالى بعد ذلك، فاطمأنّت نفسه، وذهب حزنه، وبشّ وجهه، عن طريق الأسلوب القرآني المعجز في سورة الضّحى بتذكير النّبيّ ﷺ بما حلّ به من عسر ويسر إنه دليل بشارة على زوال الخطوب، وهو ما يكاد يتطابق مع سورة الشّرح، من حيث الهدف والمضمون واللّمسة الحانية، وليس أدلّ عليه في سورة الشرح من قوله تعالى:﴿ فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۝ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۝ ﴾[2].

هـ ـ مكية السورتين أو مدنيتهما:

أـ سورة الضحى

سورة الضحى سورة مكية باتفاق أهل العلم،[3]وهي خاصة بالنبي ﷺ، وذُكر في سبب نزولها أن الوحي فتر عن النبي ﷺ، وأبطأ عنه جبريل عليه السلام، فكان سببا في نزولها [4].

---

(١)الضحى: ٤ – ٥.

(٢)الشرح: ٥ – ٦.

(٣) ينظر: مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور (٣/ ٢٠٢).

(٤) سبق ذكر سبب النزول وتخريجه ص٨.

(قلت): ووعْد الله لنبيه أنه لن يتخلى عنه هو باب أمل كبير يتناسب مع طبيعة المرحلة المكية، وهي مرحلة المعاناة من إيذاء قريش، والجحود والتكذيب، والصد عن سبيل الله ، والحرب الإعلامية والاقتصادية بأن الله ﷻ سيعطي نبيه ﷺ، وأن نتيجة ذلك العطاء ما سيحصل له بعد ذلك من علامات من التحسن التدريجي من تغير الحال من الشدة إلى الرخاء، ومن الضعف إلى القوة، ومن القلة إلى الكثرة ..إلى أن يبلغ الرسول مقام الرضا.

ب ـ سورة الشرح

"السورة مكية عند الجمهور،[1] بل زعم بعضهم أنها تتمة لسورة الضحى، وعلى هذا تكون المنة بشرح الصدر، مبنية على عود الوحي والتبشير بما جاء في سورة الضحى"[2]، فهي من أوائل السور التي نزلت بمكة؛ لما لها من علاقة وطيدة ببواكير الدعوة إلى الله ﷻ تخاطب قائد الدعوة ﷺ وتسري عنه وعن أتباعه وتبشرهم بالفرج واليسر القريب.

و ـ المناسبة بين السورتين

لا يخفى قوة المناسبة بين سورتي الضحى والشرح؛ فهما يشتركان في بيان خصوصيات رسول الله ﷺ التي امتن الله عليه بها؛ الأمر الذي حدا ببعض المفسرين اعتبار السورتين كالسورة الواحدة[3].

---

(١) ونقل القرطبي الاتفاق على هذا ، وهو قول: السمرقندي، والثعلبي، والقرطبي، وابن كثير، والنسفي وأبي السعود وغيرهم. ينظر: بحر العلوم (٣/ ٥٩٣)، والكشف والبيان (١٠/ ٢٣٢)، والجامع لأحكام القرآن (٢٠/ ١٠٤)، وتفسير ابن كثير (٨/ ٤١٥)، مدارك التنزيل (٣/ ٦٥٦)، وإرشاد العقل السليم (٩/ ١٧٢).

(٢) ينظر: التفسير البياني (١/ ٥٧).

(٣) رُوي ذلك عن طاووس وعمر بن عبد العزيز، وقد ضعفه النيسابوري، وحجته أن القرآن كله في حكم كلام واحد.. على أن الاستفهام في الضحى وارد بصيغة الغيبة، وفي الشرح بصيغة المتكلم، وهذا مما يوجب المباينة لا المناسبة". ينظر: غرائب =

ومن الملاحظ أنّ امتنان الله تعالى في سورة الضّحى على رسوله الكريمﷺ كان قد انصبّ على النّعم الحسيّة، كالإيواء من اليتم والإغناء من الضّلال، بينما الامتنان في سورة الشّرح انصبّ على تذكير نبيّه بالنّعم المعنويّة، كشرح الصّدر ووضع الوزر ورفع الذّكر، وكلا الفضلين من كرم الله ﷻ ورحمته بعباده التي وسع بها كلّ شيء، وما على العباد إلّا أن يحدّثوا بنعمة الله ﷻ عليهم، ويزيدوا من شكرهم لله عليها .

وقد ختمت سورة الضحى بأمر الله نبيه ﷺ بالتحديث بنعم الله عليه، وكأن سائلا يسأل: ما كنه هذه النعم؟.. فيأتي التفصيل بعد الإجمال في سورة الشرح.

قال البقاعي[1]: " لما أمره ﷺ آخر الضحى بالتحديث بنعمته التي أنعمها عليه؛ فصّلها في هذه السورة فقال مثبتاً لها في استفهام إنكاري مبالغة في إثباتها عند من ينكرها، والتقرير بها مقدماً المنة بالشرح في صورته قبل الإعلام بالمغفرة كما فعل ذلك في سورة الفتح الذي هو نتيجة الشرح ، لتكون البشارة بالإكرام أولاً لافتاً القول إلى مظهر العظمة تعظيماً للشرح"[2] .

=

القرآن ورغائب الفرقان (٦/ ٥٢١).

(١) إبراهيم بن عمر بن حسن بن الرباط بن علي بن أبي بكر البقاعي، نزيل القاهرة ثم دمشق، ،. له العديد من المؤلفات، أشهرها: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، ومصرع التصوف، وتنبيه الغبي إلى تكفير ابن عربي، توفي في ليلة السبت الثامن عشر من رجب سنة ٨٨٥ هـ ينظر: طبقات المفسرين للأدنه وي (ص: ٣٤٧).

(٢) نظم الدرر (٨/ ٤٦٠).

المبحث الأول: خصائص النبي محمد ﷺ في سورة الضحى.

مدخل لسورة الضحى

قال تعالى: ﴿ وَٱلضُّحَىٰ ۝١ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣ ﴾[1].

من المعلوم أن الابتداء هو أول ما يقرع السمع ، فإن كان عذبا، حسَن التركيب ،صحيح المعنى؛ أقبل السامع على الكلام فوعاه ، وإلا أعرض عنه ، وإن كان الباقي في غاية الحسن .

" فإذا اشتمل مبدأ الكلام مع ذلك على إشارة لطيفة إلى المقصود مشعرة به في الجملة ؛ سمي المبدأ بهذا الاشتمال براعة الاستهلال"[2].

وقد افتتح الله (خمس عشرة) سورة بالقسم وهي:{والصافات}، {والذاريات} ،{والطور}، {والنجم} {والمرسلات}، {والنازعات} ،{والسماء ذات البروج}، {والسماء والطارق} ،{والفجر} {والشمس} ،{والليل} {والضحى}، {والتين}، {والعاديات}، {والعصر}"[3].

فقد افتتح الحق ـ ﷻ ـ السورة الكريمة بالقسم فقال :﴿ وَٱلضُّحَىٰ ﴾ " فذكر ما هو أشرف النهار وألطفه وهو زهرته، وأضوأه وهو صدره، وذلك وقت ارتفاع الشمس؛ لأن المقسَم لأجله أشرف الخلائق، وذلك يدل على أنه يبلغ من الشرف ما لا يبلغه أحد من الخلق"[4].

والضحى: هُوَ وقتُ ارتفاعِ الشمسِ وصدرُ النهارِ قالُوا تخصيصُهُ بالإقسامِ بهِ؛ لأنَّها الساعةُ التي كلَّم فيهَا مُوسَى عليه السلام وألقَى فيهَا السحرةُ سُجدّاً

---

(١) الضحى: ١ – ٣.

(٢) شموس البراعة على دروس البلاغة (ص: ١٠٩).

(٣) البرهان في علوم القرآن (١/ ١٧٩).

(٤) نظم الدرر (٢٢/ ١٠١).

لقولِه تعالَى: ﴿وَأَن يُحۡشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحٗى﴾[1]وقيلَ أريدَ بهِ النهارُ كمَا في قولِه تعالَى ﴿أَن يَأۡتِيَهُم بَأۡسُنَا ضُحٗى﴾ [2]في مقابلةِ بياتا.

(سجى)"أي: سكن، وهذا إشارة إلى ما قيل: هدأت الأرجل، وعين سَاجِيَةٌ: فاترة الطّرف، وسَجَى البحر سَجْواً: سكنت أمواجه، ومنه استعير: تَسْجِيَةُ الميّت، أي: تغطيته بالثوب"[3].

"وَالتَّوْدِيعُ مُبَالَغَةٌ فِي الْوَدْعِ، لِأَنَّ مَنْ وَدَّعَكَ مُفَارِقًا فَقَدْ بَالَغَ فِي تَرْكِكَ. وَما قَلى: مَا أَبْغَضَكَ"[4].

افتتح الحق ﷻ السورة الكريمة بالقسم بآيتين عظيمتين من آياته دالتين على ربوبيته وحكمته ورحمته؛ وهما الليل والنهار، وهنا يتجلى مطابقة القسم ـ وهو نور الضحى الذي يأتي بعد ظلام الليل ـ للمقسم عليه ـ وهو: نور الوحي الذي وافا النبيﷺ بعد احتباسه عنه، "فإن الذي اقتضت رحمته أن لا يترك عباده في ظلمة الليل سرمداً بل هداهم بضوء النهاء إلى مصالحهم ومعايشهم لا يليق به أن يتركهم في ظلمة الجهل والغي؛ بل يهديهم بنور الوحي والنبوة إلى مصالح دنياهم وآخرتهم"[5].

لما كان في ضمن نفى التوديع والقلى[6]: أنّ الله مواصلك بالوحي إليك، وأنك حبيب الله ولا ترى كرامة أعظم من ذلك ولا نعمة أجل منه:

---

(١) طه: ٥٩.

(٢) الأعراف: ٩٨.

(٣) المفردات في غريب القرآن (ص: ٣٩٩).، مادة (سجى).

(٤) البحر المحيط (١٠/ ٤٩٦).

(٥) التبيان في أقسام القرآن (ص: ٧٣).

(٦) قَلى : القلى شدة البغض ، يقال قلاه يَقليه ويقلوه ومن جعله من الواو فهو من القلو القلو أي الرمي من قولهم: قلت الناقة براكبها قلوا وقلوت بالقلة فكأن المقلو هو الذي يقذفه القلب من بغضه فلا يقبله، ومن جعله من الياء فمن قليت البسر على المقلاة . ينظر: المفردات للراغب الأصفهاني (ص: ٤١٢)، مادة (قلى).

أخبره أن حاله في الآخرة أعظم من ذلك وأجل، وهو السبق والتقدّم على جميع أنبياء الله ورسله، وشهادة أمته على سائر الأمم، ورفع درجات المؤمنين وإعلاء مراتبهم بشفاعته، وغير ذلك من الكرامات السنية وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضى موعد شامل لما أعطاه في الدنيا؛ لذلك كان عز الدنيا يفنى، وعز الآخرة يبقى"[1].

(قلت): وكأن استفتاح السورة الكريمة بـ (الضحى) يحمل في طياته وضوح رسالته وضوح النهار، وانتشار الإسلام في ربوع الأرض؛ انتشار نور الضحى على البسيطة، والأصل في الوحي هو استمرارية الاتصال بين السماء والأرض في شخص نبينا ﷺ، وذلك حتى يكمل الدين، وتتم النعمة.

أما انقطاع الوحي لفترة فهو لحكمة عبَّر عنها الحق بقوله:﴿ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ ۝ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴾ " والليل زمن احتباس الوحي؛ لأن به يحصل الاستيحاش والغربة"[2]،" فإذا كانوا يتقبلون الضحى والليل بالرضا والتسليم لما فيهما من نفع الإنسان بالسعي والحركة والحياة بالنهار والنوم والاستجمام بالليل يجب أن يتقبلوا أيضا ما يجري على محمد ﷺ من نزول الوحي وفترته"[3].

ومن هنا يتبين أن تأخير الوحي كان لحكمة اقتضاها الله ﷻ؛ لا لقصد تركه أصلا، فالآيات فيها من الإيناس واللطف وإزالة الوحشة والتبشير لرسولنا ﷺ.

---

(١) ينظر: الكشاف (٤/ ٧٦٦)، بحر العلوم (٣/ ٥٦٧).

(٢) مفاتيح الغيب (١٩٠/١٣) بتصرف يسير.

(٣) مناهل العرفان (١/ ٢٢٤).

المطلب الأول: وعد الله لنبيه ﷺ أن الآخرة خير له من الدنيا وما فيها.

قال تعالى: ﴿ وَلَلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لَّكَ مِنَ ٱلۡأُولَىٰ ﴾[(١)].

خصائص النبي ﷺ في هذه الآية

أولا: هذه الآية بشارة وخصيصة لنبيه ﷺ أن غده سيكون خيرا له من حاضره وماضيه.

ثانيا: السبق والتقدم على جميع الأنبياء والرسل، وشهادة أمته على سائر الأمم، ورفع درجات المؤمنين، وإعلاء مراتبهم بشفاعته في الآخرة.

وللمفسرين في المراد بـ (الآخرة) و (الأولى) قولان:

الأول: (الآخرة) هي دارة الآخرة، وأن (الأولى) هي دار الدنيا.

الثاني: (الآخرة) هي عاقبة الأمر ونهايته، و(الأولى) هي بداية الأمر[(٢)].

وجوز الألوسي وجها ثالثا: وهو" أن يكون المعنى أن انقطاع الوحي لا يجوز أن يكون لما يتوهمون لأنه عزل عن النبوة، وهو مستحيل في الحكمة بل أقصى ما في الباب أن يكون ذلك؛ لأنه حصل الاستغناء عن الرسالة وذلك أمارة الموت فكأنه تعالى قال: انقطاع الوحي متى حصل دل على الموت؛ لكن الموت خير لك فإن ما لك عند الله تعالى في الآخرة أفضل مما لك في الدنيا"[(٣)].

---

(١) الضحى:٤.

(٢) واقتصر الطبري على الأول فقط، بينما جمع بين القولين: ابن عطيه، والبيضاوي، والقرطبي، وأبو السعود. ينظر: جامع البيان (٢٤/ ٤٨٧)، المحرر الوجيز (٥/ ٤٩٣)،و أنوار التنزيل (٥/ ٥٠٢)، والجامع لأحكام القرآن (٢٠/ ٩٥)، وإرشاد العقل السليم (٩/ ١٦٩).

(٣) روح المعاني (١٥/ ٣٧٨).

وقد غلب لفظ (الآخرة) في الاستعمال القرآني على الدار الآخرة ، كما غلب لفظ (الأولى)على حياة الناس التي قبل فناء هذا العالم، وعليه فإن المعنى:"وللدار الآخرة، وما أعد الله لك فيها، خير لك من الدار الدنيا وما فيها؛ يقول: فلا تحزن على ما فاتك منها، فإن الذي لك عند الله خير لك منها"[(١)]، فقد ثبت في الصحيح أن النبي ﷺ قال: "إن الله خير عبدا بين الدنيا وبين ما عند الله؛ فاختار ما عند الله"[(٢)].

(قلت): ويجوز أن يكون المراد هنا من كلا اللفظين كلا معنييه، فيفيد أن الحياة الآخرة خير له من هذه الحياة العاجلة؛ تبشيرًا له بالخيرات الأبدية، ويفيد أن حالاته تجري على الانتقال من حالة إلى أحسن منها.

مسألة: هل الآية الكريمة تشمل غير النبي ﷺ في كون الآخرة خير لهم من الأولى؟

يلاحظ أن هذه السورة خاصة بالرسول ﷺ وهو المخاطب المباشر فيها ولو قال (وللآخرة خير من الأولى) لما صح هذا؛ لأنه سيكون عاما للناس جميعا ، وهذا ما لا يحصل وعندها ستفيد الإطلاق، ولا يصح على عمومه؛ لأن بعض الناس آخرتهم شر لهم من أولاهم؛ لهذا كان لابد من أن يخصص المعنى، وهو للرسول الكريم ﷺ بالذات، ولهذا قال تعالى: ﴿ وَلَلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لَّكَ مِنَ ٱلۡأُولَىٰ ﴾ وهو ما دل عليه لفظ (لك)، حيث إنّ" اللام في قوله: (لك) لام الاختصاص، أي خير مختص بك، وهو شامل

(١) جامع البيان (٢٤/ ٤٨٧).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه من حديث أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ، كِتَابُ الصَّلاَةِ، بَابُ الخَوْخَةِ وَالمَمَرِّ فِي المَسْجِدِ، ح (٤٦٦) ،(١/ ١٠٠)، وأخرجه مسلم، كتاب فَضَائِلِ الصَّحَابَةِ رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُمْ ، بَابُ مِنْ فَضَائِلِ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ ﷺ ، ح (٢٣٨٢) ، (٤/ ١٨٥٤).

لكل ما له تعلق بنفس النبيﷺ في ذاته وفي دينه وفي أمته، فهذا وعد من الله بأن ينشر دين الإسلام وأن يمكن أمته من الخيرات التي يأملها النبي ﷺ لهم"[١].

(قلت): وعليه فإن الوعد خاص بالنبي ﷺ ، وأمته له تبعا.

"ولا مانع من عمومه لجميع الفائزين.. كيف وقد علم بالضرورة أن الخير المعدّ له ﷺ خير من المعدّ لغيره على الإطلاق، ويكفي في ذلك اختصاص المقام المحمود به ﷺ "[٢].

وقد آثر الحق ﷻ بالتعبير بقوله: ﴿ وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ ٱلْأُولَىٰ ﴾ ولم يقل (خير لك من الدنيا)

لأنه لو قالها لما صحت إلا في الاخرة ، فكأنما حصر الخير في الآخرة فقط، ونفى حصول الخير فيما يستقبل من حياته.

وقد أثبتت الليالي والأيام أن الخير صُب على النبي ﷺ وأمته، في الدنيا بأن تحولت " إلى حال أفضل.. وأخيرا البشارة بأن الآخرة الحقيقية المتمثلة بالجنة، والمنتهية برؤية الله ﷻ ستكون أفضل من كل ما عداها"[٣].

وقد دل عليه ما رواه الطبراني، والبيهقي في «دلائل النبوة» عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: «قال رسول الله ﷺ : عُرض عليّ ما هو مفتوح لأمتي بعدي، فسرني، فأنزل الله تعالى: ﴿ وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ ٱلْأُولَىٰ ﴾"[٤].

---

(١) التحرير والتنوير (٣٠/ ٣٩٧).

(٢) روح المعاني (١٥/ ٣٧٧).

(٣) إرشاد العقل السليم (١٦٩/٩)، روح المعاني (١٥٨/٣٠).

(٤) رواه الطبراني في الأوسط، ح (٥٧٢)، والبيهقي في دلائل النبوة، بَابُ فُتُورِ الْوَحْيِ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَتْرَةً حَتَّى شَقَّ عَلَيْهِ وَأَحْزَنَهُ وَظَهَرَتْ عَلَيْهِ آثَارُ ذَلِكَ.
=

وبإنعام نظر إلى الجار المجرور(لك) نقف على دلالة توكيدية، حيث خصه ﷻ بذلك، ولا يقتصر الأمر على التوكيد في هذا بل يتعداه إلى معنى القرب والتودد، ليرسم في ذهن الرسول ﷺ مدى قربه من الله، وسند هذا كثير في النص القرآني، ومنه قوله:﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴾[1]وقوله: ﴿ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ﴾[2] ، فنلحظ أن لفظتا (لك وعندك) وردتا في السورة زيادة للتقريب والحرص منه ﷻ على رسوله ﷺ ، "وقد أكد الله بهذا الخير الموعود، نفى التوديع والقلى، ليذهب عن رسوله أثر فتور الوحي"[3].

وجملة القول: إن كل من اتبع النبي ﷺ، له نصيب من هذا الفضل، وغيره من الفضائل التي أكرم بها النبي ﷺ مما ليس من خصائص النبوة، وذلك بقدر اتباعه له، وقد دل على هذا قوله تعالى:﴿ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ ﴾[4]، وقوله: ﴿ وَٱلْأَخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾[5].

=

قال الهيثمي: "وفيه معاوية بن أبي العباس، ولم أعرفه، وبقية رجاله ثقات، وإسناد الكبير حسن". ينظر المعجم الأوسط (١/ ١٧٩)، ودلائل النبوة (٧/ ٥٨)، ومجمع الزوائد ومنبع الفوائد (٧/ ١٣٩).

(١) الشرح:١.

(٢) الشرح: ٢

(٣) التفسير البياني للقرآن الكريم (١/ ٣٦).

(٤) آل عمران: ١٩٨.

(٥) الزخرف: ٣٥.

المطلب الثاني: إعطاء النبي ﷺ من النعم حتى يرضى.

قال تعالى:﴿ وَلَسَوۡفَ يُعۡطِيكَ رَبُّكَ فَتَرۡضَىٰٓ ﴾[(١)].

خصائص النبي ﷺ في هذه الآية:

أولا: خصوصية الرسول بالخير وهذا تصديق على ما ورد في قوله: ﴿ وَلَلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لَّكَ ﴾

ثانيا: تأكيد العطاء وتجدده للرسولﷺ، وهذا مستفاد من قوله: ﴿ وَلَسَوۡفَ يُعۡطِيكَ ﴾.

ثالثا: التسرية عن الرسول ﷺ بتصور المستقبل الواعد بالبشارة الشاملة، واللطف الواسع، فكلمة (فترضى) في الآية الكريمة إشارة إلى أنه سيصل إلى غاية الرضا بكمال دينه، ومنه قوله تعالى: ﴿ ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗا ﴾[(٢)].

رابعا: ورود لفظي (الرضا) و (العطاء) مطلقين؛ ليشمل العطاء كل شيء، ولم يخصصه بشيء معين إكراما للرسول ﷺ، وتوسيعا للعطاء والرضا.

والرضا في الآية الكريمة "يحتمل وجهين: أحدهما: يعطيك من النصر في الدنيا ، وما يرضيك من إظهار الدين. الثاني: يعطيك المنزلة في الآخرة، وما يرضيك من الكرامة"[(٣)].

"واللام الداخلة على (سوف)؛ لام الابتداء المؤكدة لمضمون الجملة، والمبتدأ محذوف تقديره : ولأنت سوف يعطيك"[(٤)].

---

(١) الضحى: ٥.

(٢) المائدة: ٣.

(٣) الكشف والبيان (١٠/ ٢٢٤)، بحر العلوم (٣/ ٥٩٢)، النكت والعيون (٦/ ٢٩٣).

(٤) تفسير النسفي(٣/ ٦٥٤).

ومن تمام رضا النبي ﷺأن تنجوا أمته يوم القيامة حبا منه وإشفاقا عليهم، فعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرِو ابْنِ الْعَاصِ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ: تَلَا قَوْلَ اللهِ ﷻ فِي إِبْرَاهِيمَ: ﴿ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾[١] .. الْآيَةَ، وَقَالَ عِيسَى عليه السلام: ﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾ ﴾[٢] ، فَرَفَعَ يَدَيْهِ وَقَالَ: «اللهُمَّ أُمَّتِي أُمَّتِي»، وَبَكَى، فَقَالَ اللهُ ﷻ: «يَا جِبْرِيلُ اذْهَبْ إِلَى مُحَمَّدٍ، وَرَبُّكَ أَعْلَمُ، فَسَلْهُ مَا يُبْكِيكَ؟» فَأَتَاهُ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، فَسَأَلَهُ فَأَخْبَرَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِمَا قَالَ، وَهُوَ أَعْلَمُ، فَقَالَ اللهُ: " يَا جِبْرِيلُ، اذْهَبْ إِلَى مُحَمَّدٍ، فَقُلْ: إِنَّا سَنُرْضِيكَ فِي أُمَّتِكَ، وَلَا نَسُوءُكَ "[٣].

(قلت): واختيار كلمة (الرضا) يعد من أجلّ نعم الله على النبي ﷺ فهو أساس الاستقرار وراحة البال، فإن التعب مع الرضا راحة، والراحة من دونه تعب، والفقر مع الرضا غنى، والغنى من دونه فقر.

ومن تمام الرضا أن الله ﷻ أرضى رسوله ﷺ فجعله خاتم النبيين حيث لا نبي بعده، وخير رسله أجمعين، وأرضاه سبحانه وتعالى فجعل دينه المرضي عنه، بل جعل دينه هو الدين الذي لا يقبل الله سواه، حيث قال سبحانه وتعالى ﴿ وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾[٤].

---

(١) إبراهيم: ٣٦.

(٢) المائدة: ١١٨.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كِتَابُ الْإِيمَانَ، بَابُ دُعَاءِ النَّبِيِّ ﷺ لِأُمَّتِهِ، وَبُكَائِهِ شَفَقَةً عَلَيْهِمْ، ح (٣٤٦) ، (١/ ١٩١).

(٤) المائدة: ٣.

ـ ومن خلال السياق القرآني يتضح الحكمة من التعبير بـ (يعطيك) ولم يقل (يؤتيك)؛ لأن الإيتاء قد يشمله النزع، ومنه قوله تعالى:﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا ﴾[1]وقد لا يستوجب الإيتاء لشخص ما أن يتصرف بما أوتي، ولذا قال تعالى: ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ ﴾[2].

أما العطاء فلصاحبه حرية التصرف فيه بالوهب والمنح؛ قال تعالى: ﴿ إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ﴾[3] وكما قال الله لسيدنا سليمان: ﴿ هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾[4] أي له الحق في التصرف فيه كيفما يشاء ـ كما دلّ عليه السياق القرآني ـ .

ـ إن حجة لام التأكيد مقترنة بحرف التسويف الداخل على الإعطاء بصيغة المضارعة من قِبَل الرب المضاف إلى ضمير خطابه ﷺ مع فاء العطف الداخلة على كلمة (ترضى)، والتعبير عن الإعطاء بالفعل المضارع؛ **لهو دليل على تجدد هذا العطاء واستمراره فهو عطاء غير ممنون**، وهذا ما يدل عليه التعبير باسم (الرب)أي: ربك الذي رباك، وتحنّنك بمزيد فضله.

(١) الأعراف١٧٥.

(٢) آل عمران: ٢٦.

(٣) الكوثر: ١.

(٤) ص: ٣٩.

ويلاحظ تكرار اسم (الرب) فقد ذُكر فيما قبل في قوله: ﴿ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴾ هذا التكرار يدل على شدة العناية وعظيم المنة الربانية التي ينالها الرسول الكريم، "ما لا يخفى أيضا من اللطف به ﷺ"[1].

ـ وعبّر بقوله (فترضى) ولم يقل (لترضى)؛ لأن رضا النبي ﷺ ليس معللا؛ وإنما المقصود أن كل عطية من فضل المعطي تقابل برضى من مشكاة النبوة؛ أي كلما يعطيه ربه شيئا يحصل منه الرضا المطلق.

وشتان شتان بين الجملتين وبين المقامين؛ أي بين يعطيك فترضى .. أو يعطيك لترضى، إن الثانية إنما هي لهؤلاء الذين يشغلهم العطاء عن المعطي، وحاشا لنبيه أن يكون من هؤلاء.

وهذا يدل على "أن العطاء كائن لا محالة؛ وإن تأخر.. لما في التأخير من مصلحة"[2].

---

(١) روح المعاني (١٥/ ٣٨٠).

(٢)التفسير البياني (١/ ٤١).

المطلب الثالث: إيواء النبي ﷺ من اليتم.

قال تعالى:﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ﴾(١).

خصائص النبي ﷺ في هذه الآية:

أولا: أن الله تعهد نبيه ﷺ بالعناية والحفظ منذ أن خرج إلى الدنيا .

ثانيا: أن الله ﷻ آواه إلى نفسه واختصه برسالته.

يعدد المولى ﷻ نعمه على حبيبه ﷺ ليستشهد بالحاضر الموجود على المترقب الموعود، فالله ﷻ هو الذي تعهد نبيه ﷺ بلطفه، وحاطه برعايته في جميع ظروف حياته؛ ما تركه للوساوس والهواجس، وإنما كان معه في جميع الظروف والأحوال التي مرت به، لقد وجده يتيما فآواه، ورعاه ليحول بينه وبين ذل اليتم وما يكون له من تأثير على النفوس؛ فيطمئن قلبه ﷺ وينشرح صدره.

و"(اليتم) في الناس من قبل الأب وفي البهائم من قبل الأم، وكل شيء مفرد يعز نظيره فهو (يتيم) ، يقال: ودرة يتيمة أي لا نظير لها ومن هنا أطلق اليتيم على كل فرد يعز نظيره"(٢).

والإيواء: "مصدر آوى، وهو وأوى بمعنى واحد، وهو ضمّ الإنسان غيره إلى نفسه، كقوله تعالى: ﴿ وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ آوَىٰ إِلَيْهِ أَخَاهُ ﴾(٣)، أو إلى مكان يقيم ويأمن فيه؛ ومنه قوله تعالى: ﴿ إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ ﴾(٤) أي انضمّوا إليه.

ويأتي بمعنى العَوْد ، تقول: أوى إلى اللَّه ، أي رجع إليه، وآوى إلى

---

(١) سورة الضحى: ٦.

(٢) ينظر: المصباح المنير (٢/ ٦٧٩)، مادة(يتم)، مختار الصحاح (ص: ٣٤٨)، مادة (يتم).

(٣) يوسف: ٦٩

(٤) الكهف: ١٠

فراشه، أي رجع وانضمّ إليه"[1].

وقد وردت مادة (اليتم) في القرآن (واحد وعشرين) مرة، بدءً من سورة البقرة، وانتهاء بسورة (الماعون)

وفي تفسير الآية الكريمة عدَّة أقوال:

القول الأول: المقصود بيتم النبي ﷺ:" هو فقد أبويه وهو صغير، فكفله جده عبد المطلب، ثم مات فكفله عمه أبو طالب ، **وعليه فتأويله وجهان:**

أحدهما: أنه أراد يتم الأبوة بموت من فقده من أبويه، وعلى هذا في قوله تعالى: (فآوى) **وجهان: أحدهما:** أي جعل لك مأوى لتربيتك، وقيمّاً يحنو عليك ويكفلك، وهو أبو طالب بعد موت عبد الله وعبد المطلب .

الثاني: أي جعل لك مأوى نفسك، وأغناك عن كفالة أبي طالب

والوجه الثاني: أنه أراد باليتيم الذي لا مثيل له ولا نظير، من قولهم: درة يتيمة؛ إذا لم يكن لها مثيل، فعلى هذا في قوله (فآوى) **وجهان:**

أحدهما: فآواك إلى نفسه واختصك برسالته، **الثاني:** أن جعلك مأوى الأيتام بعد أن كنت يتيماً ، وكفيل الأنام بعد أن كنت مكفولاً ، تذكيراً بنعمه عليه "[2].

وتعقب الزمخشري القول القائل إنه أراد باليتيم الذي لا مثيل له ولا نظير، من قولهم: درة يتيمة بأنه من بدع التفاسير[3]؛ لذا الأرجح حمل اليتم على الحقيقة، وهو فقد الأب دون البلوغ ـ كما أسلفت ـ فهو الأنسب

---

(١) ينظر: النهاية لابن الأثير (١/٨٠)، مادة (يتم)، والمفردات للراغب (١/١٠٣)، مادة(يتم)، ومجمع البحرين (١/١٠٠).

(٢) ينظر: جامع البيان (٢٤/ ٤ ٨٩)، تفسير ابن أبي حاتم (١٠/ ٣٤٤٣)، والنكت والعيون (٦/ ٢٩٣ ، ٢٩٤)، والتسهيل لعلوم التنزيل (٢/ ٤٩٠) ، بحر العلوم (٣/ ٥٩٢) ، الكشف والبيان (١٠/ ٢٢٦).

(٣) ينظر: الكشاف (٤/ ٧٦٨).

لما كان عليه حاله ﷺ.

(قلت) فإن قيل: لم نشأ النبي ﷺ يتيم الأبوين؟ قيل:"لئلا يكون لمخلوق عليه حق"[١].

وهنا سؤال يكمن: "كيف يحسن من الجواد أن يمن بنعمة، فيقول: ﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ﴾؟

والذي يؤكد هذا السؤال أن الله تعالى حكى عن فرعون أنه قال: ﴿ قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا ﴾[٢]

في معرض الذم لفرعون، فما كان مذموما من فرعون كيف يحسن من الله؟ الجواب: أن ذلك يحسن إذا قصد بذلك أن يقوي قلبه ويعده بدوام النعمة، وبهذا يظهر الفرق بين هذا الامتنان وبين امتنان فرعون؛ لأن امتنان فرعون محبط، لأن الغرض.. فما بالك لا تخدمني؟ وأما امتنان الله بزيادة نعمه، كأنه يقول: مالك تقطع عني رجاءك، ألستُ شرعت في تربيتك؟ أتظنني تاركا لما صنعت؟ بل لا بد وأن أتمم عليك وعلى أمتك النعمة"[٣].

ومن هنا تبين لنا الآية أن تكوين نفس النبي ﷺ الزكية على الكمال خيرٌ من تربية الأبوين، فقد أحيط يتمه ﷺ بالرعاية التامة حتى من قِبَل من ليس على دينه ـ عمه أبو طالب ـ وهو ما يدل عليه براعة التصوير القرآني باستخدام الاستفهام التقريري في قوله: (ألم يجدك).

---

(١) الجامع لأحكام القرآن (٢٠/ ٩٦).

(٢) الشعراء: ١٨.

(٣) مفاتيح الغيب (٣١/ ١٩٦).

المطلب الرابع: هدايته ﷺ من الضلالة.

قال تعالى:﴿ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ﴾(١).

خصائص النبي في هذه الآية.

أولا: منة الله على نبيه ﷺ بأن أنقذه من الحيرة.

ثانيا: اصطفاء الله لنبيه ﷺ بأن يكون هاديا للحيارى مصداقا لقوله تعالى:﴿ وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴾(٢).

الأصل في الضلال: الغيبة، وفقدان الطريق، ومنه قيل "للحيوان الضائع ضالة للذكر والأنثى والجمع الضوال مثل دابة ودواب ويقال لغير الحيوان ضائع ولقطة وضل البعير غاب وخفي موضعه، و (ضللت) المسجد والدار إذا لم تعرف موضعهما وكذا كل شيء مقيم لا يهتدى له"(٣).

ونقيض الضلال: الهدى، ثم جاء الاستعمال المعنوي للضلال والهدى، ملحوظاً فيهما الأصل الحسي، والاستعمال في المصطلح الديني للضلال والهدى بمعنى الكفر والإيمان، وقوّى هذا الاستعمال الاصطلاحي حتى كاد يكون هو المتبادر، عند الإطلاق.

والقرآن الكريم، قد استعمل الضلال بمعنى (الكفر والباطل) ومنه قوله تعالى:﴿ فَمَاذَا بَعۡدَ ٱلۡحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ﴾(٤)، مع بقاء الأصل اللغوي الذي هو ضلال الطريق، بدليل اقتران الضلال بالسبيل، إحدى عشرة مرة(٥).

---

(١) الضحى: ٧.

(٢) الشورى: ٥٢.

(٣) ينظر: المصباح المنير (٢/ ٣٦٣)، مادة(ضلل) ، و مختار الصحاح (ص: ١٨٥)، مادة(ضلل).

(٤) يونس:٣٢.

(٥) في سور: البقرة:١٠٨و النساء :٤٤، والمائدة١٢،٦٠ ، ٧٧، والفرقان: ٩، ١٧،٣٤، ٤٢ ،٤٤ ، والممتحنة١.

مسألة: هل يُحمل الضلال على حقيقته، وهل يستقيم هذا المعنى مع النبي ﷺ؟

بادئ ذي بدء هذه الآية الكريمة يوهم ظاهرها أن النبي ﷺ كان ضالا قبل الوحي، مع أن قوله تعالى: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾ [(١)]، يدل على أنه ﷺ فُطِر على هذا الدين الحنيف.

- وللمفسرين في تأويل (الضلال) في الآية، مذاهب شتى بلغت عند الرازي وحده، عشرين تأويلاً؛ أبرزها منها الضلال عن القبلة، ومنها الضلال عن الهجرة متحيراً في يد قريش يتمنى فراقهم ، ومنه الضلال عن أمور الدنيا وشئون التجارة، فهداه الله فربحت تجارته، ومنه وجدك ضالا عن الضالين منفردا عنهم مجانبا لدينهم"[(٢)].

وأنكر جمهور المفسرين، تفسير وحمل (الضلال) هنا على الكفر.

قال القاضي أبو محمد[(٣)]: ".. رسول الله ﷺ لم يعبد صنما قط"[(٤)].

وذُكر في تفسير الضلال، أن سيدنا محمداً ﷺ"ضل في شعاب مكة وهو صغير، فرده الله إلى جده، وقيل ضلاله من حليمة مرضعته، وقيل ضل في طريق الشام"[(٥)].

---

(١) الروم: ٣٠.

(٢) ينظر: مفاتيح الغيب (٣١/ ١٩٧، ١٩٨).

(٣)هو أبو محمد عبد الحق بن أبي بكر غالب ، بن عطيه من أهل غرناطة، ينتمي لأسرة مهاجرة من المشرق، فتتلمذ على كبار علماء الأندلس، كان فقيهاً عالماً بالتفسير والأحكام والحديث، من مؤلفاته: فهرس ابن عطيه، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، توفي: سنة ٥٤٢ هـ. ينظر: الصلة في تاريخ أئمة الأندلس (ص: ٤٢٥)، وطبقات المفسرين للسيوطي (ص: ٦٠).

(٤) المحرر الوجيز (٥/ ٤٩٤).

(٥) تفسير البغوي (٥/ ٢٦٨)، ينظر: الكشاف (٤/ ٧٦٧)، والبحر المحيط (١٠/ ٤٩٧)، وتفسير ابن كثير (٨/ ٤٢٦).

على أن الاستعمال القرآني لا يلتزم دائماً هذا المعنى الاصطلاحي، فقد يخرج عن الأصل اللغوي من ضلال الطريق، أو عدم الاهتداء إلى الصواب: قال إخوة يوسف لأبيهم" ﴿ قَالُواْ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ ﴾[1]، وليس الضلال هنا كفراً، وإنما هو الشغف بيوسف.

كما قالت النسوة في امرأة العزيز ويوسف: ﴿ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾[2]،وفي آية الشعراء حكاية عن موسى: ﴿ قَالَ فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴾[3]، وفي شهادة رجل وامرأتين على الدين بقوله تعالى: ﴿ أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ ﴾[4]، وليس شيء من هذه الآيات بالذي يحمل الضلال فيه، على معناه الاصطلاحي وهو الكفر"[5].

(قلت): بل دلت النصوص على أن الله عصم نبيه ﷺ من صغائر الذنوب قبل البعثة، فما بالنا بعظيمها وهو الكفر.. ويدل عليه ما روي عن عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رضي الله عنه، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «مَا هَمَمْتُ بِقَبِيحٍ مِمَّا يَهُمُّ بِهِ أَهْلُ الْجَاهِلِيَّةِ إِلَّا مَرَّتَيْنِ مِنَ الدَّهْرِ كِلْتَاهُمَا عَصَمَنِي اللَّهُ مِنْهُمَا.

---

(١) يوسف: ٩٥.

(٢) يوسف: ٣٠.

(٣) الشعراء: ٢٠.

(٤) البقرة: ٢٨٢.

(٥) ينظر: التفسير البياني (١/ ٤٦)، و دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب (ص: ٢٧٤).

قُلْتُ لَيْلَةً لِفَتًى كَانَ مَعِي مِنْ قُرَيْشٍ بِأَعْلَى مَكَّةَ فِي غَنَمٍ لِأَهْلِنَا نَرْعَاهَا: أَبْصِرْ لِي غَنَمِي حَتَّى أَسْمُرَ هَذِهِ اللَّيْلَةَ بِمَكَّةَ كَمَا يَسْمُرُ الْفِتْيَانُ.

قَالَ: نَعَمْ، فَخَرَجْتُ، فَلَمَّا جِئْتُ أَدْنَى دَارٍ مِنْ دُورِ مَكَّةَ سَمِعْتُ غِنَاءً، وَصَوْتَ دُفُوفٍ، وَمَزَامِيرَ.

قُلْتُ: مَا هَذَا؟ قَالُوا: فُلَانٌ تَزَوَّجَ فُلَانَةَ لِرَجُلٍ مِنْ قُرَيْشٍ تَزَوَّجَ امْرَأَةً مِنْ قُرَيْشٍ، فَلَهَوْتُ بِذَلِكَ الْغِنَاءِ، وَبِذَلِكَ الصَّوْتِ حَتَّى غَلَبَتْنِي عَيْنِي، فَنِمْتُ فَمَا أَيْقَظَنِي إِلَّا مَسُّ الشَّمْسِ، فَرَجَعْتُ إِلَى صَاحِبِي، فَقَالَ: مَا فَعَلْتَ؟ فَأَخْبَرْتُهُ، ثُمَّ فَعَلْتُ لَيْلَةً أُخْرَى مِثْلَ ذَلِكَ، فَخَرَجْتُ، فَسَمِعْتُ مِثْلَ ذَلِكَ، فَقِيلَ لِي: مِثْلُ مَا قِيلَ لِي، فَسَمِعْتُ كَمَا سَمِعْتُ، حَتَّى غَلَبَتْنِي عَيْنِي، فَمَا أَيْقَظَنِي إِلَّا مَسُّ الشَّمْسِ، ثُمَّ رَجَعْتُ إِلَى صَاحِبِي، فَقَالَ لِي: مَا فَعَلْتَ؟ فَقُلْتُ: مَا فَعَلْتُ شَيْئًا، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: فَوَ اللَّهِ، مَا هَمَمْتُ بَعْدَهُمَا بِسُوءٍ مِمَّا يَعْمَلُهُ أَهْلُ الْجَاهِلِيَّةِ، حَتَّى أَكْرَمَنِي اللَّهُ بِنُبُوَّتِهِ»[1].

(قلت): إذًا ثبت أن النبي ﷺ لم يتبع قومه فيما كانوا عليه من ضلال، وعليه فإن" الصواب أنه ضلال من توقف لا يدري كما قال ﷻ: ﴿ مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ ﴾[2]"[3]، " فهي الحيرة تلم بقلوب أهل الإخلاص، فيما يرجون للناس من الخلاص، وطلب السبيل إلى ما

(١) أخرجه ابن حبان في صحيحه، كتاب: بدء الخلق، باب: ذكر الْخَبَرِ الْمُدْحِضِ قَوْلَ مَنْ زَعَمَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺكَانَ عَلَى دِينِ قَوْمِهِ قَبْلَ أَنْ يُوحَى إِلَيْهِ، ح /(٦٢٧٢)، (١٤/ ١٦٩)، والحاكم في مستدركه، كِتَابُ التَّوْبَةِ وَالْإِنَابَةِ، ح/ (٧٦١٩) وقال الحاكم: هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحُ الْإِسْنَادِ وَلَمْ يُخَرِّجَاهُ، ينظر: المستدرك على الصحيحين للحاكم (٤/ ٢٧٣)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد: رجاله ثقات (٣/٧٥١).

(٢) الشورى: ٥٢ .

(٣) المحرر الوجيز (٥/ ٤٩٤).

هدوا إليه من إنقاذ الهالكين، وإرشاد للضالين، وقد هدى الله نبيه إلى ما كانت تتلمسه بصيرته باصطفائه لرسالته، واختياره من بين خلقه لتقرير شريعته"[(١)]، "فألهمه أن ما عليه قومه من الشرك خطأ وألقى في نفسه طلب الوصول إلى الحق ليتهيأ بذلك لقبول الرسالة عن الله تعالى"[(٢)].

"إن استعداد محمد ﷺ للنبوة والرسالة عبارة عن جعل الله ﷻ روحه الكريمة كمرآة صقيلة حيل بينها وبين كل ما في العالم من التقاليد الدينية، والآداب الوراثية والعادات المكتسبة، إلى أن تجلى فيها الوحي الإلهي بأكمل معانيه، وأبلغ مبانيه "[(٣)].

ومما سبق يتبين: أن الاحتكام إلى القرآن الكريم نفسه، يعفينا من التزام المعنى المصطلح في لفظ (الضلال) بمعنى الكفر؛ لذا المختار ـ فيما أرى ـ من الآراء السابقة في معنى (الضلال) قولان: **أولهما:** أن المراد بالضلال هنا الحيرة في الوصول إلى الحق، والغفلة عما أوحاه الله– تعالى– إليه بعد ذلك من قرآن كريم، ومن تشريعات حكيمة.. مع اعتقاده ـ ﷺ ـ قبل النبوة أن قومه ليسوا على الدين الحق، بدليل أنه لم يشاركهم في عبادتهم للأصنام، ولا في السلوك الذي يتنافى من مكارم الأخلاق، وهذا ما دل عليه قوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدْرِي مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَاۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾[(٤)].

(١) تفسير المنار (١١/ ١٦٠).
(٢) التحرير والتنوير (٣٠/ ٤٠٠).
(٣) تفسير المنار (١١/ ١٦٠).
(٤)الشورى: ٥٢.

وإلى هذا المعنى أشار صاحب الكشاف بقوله: "ضَالًّا معناه: الضلال عن علم الشرائع وما طريقه السمع"(١).

أما **القول الثاني** في معنى الآية الكريمة، فهو أنه ﷺ كان بين قوم مشركين، ولكن الله ﷻ حبب إليه الانفراد عنهم، واعتزال شركهم وسوء أخلاقهم.. فكان بذلك كالشجرة المنفردة في الصحراء، والعرب تسمى الشجرة التي بهذه الصفة ضالة(٢).

المطلب الخامس: إغناؤه ﷺ بعد الفقر.

قال تعالى: ﴿ وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغۡنَىٰ ﴾(٣) .

خصائص النبي في هذه الآية:

أولا: إغناء الله ﷻ نبيه ﷺ بعد فقر.

ثانيا: إغناؤه ﷺ عن الناس.

ثالثا: إغناؤه ﷺ عن حب الدنيا.

العيلة: (عال): "بالفتح الفقر وهي مصدر (عَالَ يَعِيلُ) من باب سار فهو (عَائِلٌ) و الجمع (عَالَةٌ)، و(العيلة): الفقر والحاجة ويقال طالت عيلتي إياك أي طالما علتك أي منتك "(٤).

والغني: "الغين والنون والحرف المعتل أصلان صحيحان، وهو يدل على الكفاية، وهو: الغنى في المال"، والغنى من أسماء الله : "هُوَ الَّذِي لَا يَحْتاجُ إِلَى أَحدٍ فِي شيءٍ وكلُّ أَحَدٍ مُحْتاجٌ إِلَيْهِ، وَهَذَا هُوَ الغِنى المُطْلَق

---

(١) الكشاف (٧٦٨/٤).

(٢) ينظر: الجامع لأحكام القرآن (٩٦/٢٠)، والتفسير الوسيط لطنطاوي (١٥/ ٤٣٠).

(٣) الضحى: ٨.

(٤) ينظر: المصباح المنير (٢/ ٤٤٠)،المعجم الوسيط (٢/ ٦٤٠)، مادة : (عال).

وَلَا يُشارِك"[1].

قوله تعالى: ﴿ وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ ﴾.

فيه مسائل :

المسألة الأولى :المراد بالعائل

العائل هو ذو العيلة، وأطلق العائل على الفقير، وإن لم يكن له عيال ـ كما دل عليه المعنى اللغوي ـ ولم ترد مادة (عال) في القرآن إلا مرتين: الأول: آية الضحى التي بين أيدينا، والثاني: في سورة التوبة في قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ إِن شَآءَ ﴾[2]،وهي في المرتين، كلتيهما، مقابلة للغنى.

المسالة الثانية: كيفية الإغناء

للمفسرين في كيفية إغناء الله ﷻ لنبيه ﷺ أقوال، أشهرها:

القول الأول: الغنى بالمال[3] أي "أن الله تعالى أغناه بتربية أبي طالب، ولما اختلت أحوال أبي طالب أغناه الله بمال خديجة، ولما اختل ذلك أغناه الله بمال أبي بكر، ولما اختل ذلك أمره بالهجرة وأغناه بإعانة الأنصار، ثم أمره بالجهاد، وأغناه بالغنائم، وإن كان إنما حصل بعد نزول هذه السورة، لكن لما كان ذلك معلوم الوقوع كان كالواقع"[4].

---

(١) ينظر: لسان العرب (١٥/ ١٣٥)، مادة (غنا)، مقاييس اللغة (٤/ ٣٩٧)، مادة (غنا).

(٢) التوبة: ٢٨.

(٣) ينظر: جامع البيان (٢٤/ ٤٨٩)، والنكت والعيون (٦/ ٢٩٥)، الجامع لأحكام القرآن (٢٠/ ٩٩)، تفسير النسفي (٣/ ٦٥٥)، تفسير أبي السعود (٩/ ١٧١).

(٤) مفاتيح الغيب (٣١/ ١٩٩).

القول الثاني: الغنى بالقناعة، "فقد عاش ﷺ مكفيا ومات مكفيا"[١]، والمعنى: "أغناك بالقناعة فصرت بحال يستوي عندك الحجر والذهب، لا تجد في قلبك سوى ربك، فربك غني عن الأشياء لا بها، وأنت بقناعتك استغنيت عن الأشياء، وإن الغنى الأعلى الغنى عن الشيء لا به"[٢]، "وإنما أغناه الله بالتعفف وسد الحاجة، فلم يذله فقر المال، كما لم يكسر اليتم نفسه، بل وقاه الله وقاية نفسية معنوية من آثار اليتم والفقر والضلال، وليست وقاية مادية ترد إليه أباه الذي مات قبل مولده، وتملأ خزانته بالمال، وتهيء له رغد العيش"[٣].

القول الثالث: أغناك عن الخلق أي: "كنت فقيرا ذا عيال، فأغناك الله عمن سواه، فجمع له بين مقامي، الفقير الصابر والغني الشاكر، صلوات الله وسلامه عليه"[٤].

السؤال الأول : ما الحكمة في أنه تعالى اختار له اليتم ؟ قلنا : فيه وجوه :

منها : أن يعرف قدر اليتامى فيقوم بحقهم وصلاح أمرهم ، ومن ذلك كان يوسف عليه السلام لا يشبع، فقيل له في ذلك : فقال أخاف أن أشبع فأنسى الجياع"[٥] .

"واستعمل القرآن في الآيات الثلاث، الفعل [وَجَدَ] وهو من أفعال القلوب ولم يقل مثلاً: أما كنت يتيماً، وكنت عائلاً، فسيطر الجو المعنوي

(١) تفسير المنار (١٠/ ٤٢٤).

(٢) مفاتيح الغيب (٣١/ ١٩٩).

(٣) التفسير البياني (١/ ٥١).

(٤) تفسير ابن كثير (٨/ ٤٢٧).

(٥) مفاتيح الغيب (٣١/ ٢٠٠).

النفسي على الموقف، وتهيأت للرسول الطمأنينة الوجدانية لتلقى الآيات الكريمة"(١).

وفي حذف كاف الخطاب من: "فآوى، فهدى، فأغنى" قال مفسرون بالحذف لرعاية الفواصل، وهو ما لا نرى البيان العالي يتعلق به، وأولى منه قول من قالوا بالحذف لدلالة صريح السياق على المخاطب،.

"فإن قيل: فما الحكمة في أن أخر الله تعالى حق نفسه عن حق اليتيم والعائل؟ قلنا: فيه وجوه **أحدها:** كأنه يقول أنا غني وهما محتاجان، وتقديم حق المحتاج أولى، **وثانيها:** أنه وضع في حظهما الفعل، ورضي لنفسه بالقول، **وثالثها:** أن المقصود من جميع الطاعات استغراق القلب في ذكر الله تعالى، فجعل خاتمة هذه الطاعات تحدث القلب واللسان بنعم الله تعالى حتى تكون ختم الطاعات على ذكر الله، واختار قوله: فحدث على قوله فخبر، ليكون ذلك حديثا عنده لا ينساه، ويعيده مرة بعد أخرى"(٢).

وجملة القول في معنى(الغني): وجدك محتاجا فأغناك، أي أقنعك بما أعطاك، وغنى الله لعباده؛ قد يكون بتنمية أموالهم، أو تصفية أحوالهم، وهذا هو الأهم.

ـ "وفي حذف كاف الخطاب من: "فآوى، فهدى، فأغنى" قيل الحذف لرعاية الفواصل، وأولى منه قول من قالوا بالحذف لدلالة صريح السياق على المخاطب، فضلا عن فائدة الإطلاق، فتحتمل: فآواك وآوى برسالتك اليتامى والمستضعفين، فهداك وهدى بك أمتك، فأغناك وأغناها بك"(٣).

---

(١) التفسير البياني (١/ ٥١).

(٢) مفاتيح الغيب (٣١/ ٢٠١).

(٣) التفسير البياني (١/ ٥١) بتصرف يسير .

وبعد: فإن حقيقة الضحى التي يتلوها الليل الساجي[١] ـ رمزية إلى تغير أحوال الدنيا وعدم استقرارها ـ فإن كان الإنسان يبغي الرضوان الكامل الذي لا تكدره المنغصات؛ فلن يجده في هذه الدنيا قط؛ وإنما العطاء الدائم في الآخرة حيث النعيم المقيم الذي لا يحول ولا يزول.

وعدم استقرار الأحوال في الدنيا لأحد؛ مر به النبي ﷺ، ــ كما صورته سورة الضحى ـ فقد كان يتيما فاقد حنو الوالدين، وكان قبل البعثة لا يدري ما الكتاب ولا الإيمان، فهداه الله ـ ﷻ ـ وجعله أفضل الرسل، وأذكى المؤمنين، وكان في شبابه فقيرا (عائلا)، كل هذا بمثابة الليل الساجي في التغير الكوني المعهود.. فكان أن هداه الله بهذا الدين القويم، وأغناه الله، ورزقه الزوج الصالحة، والمال ـ وهذا بمثابة الضحى.

وإذا كان الله قد أنعم على رسوله بهذه النعم السابقة؛ فحري على الرسول ﷺ أن يشكر الله عليها

وشكر النعمة يكون من جنسها، وذلك بطريقتين:

الأولى: الشكر بالعمل متمثلا في الإحسان في معاملة اليتامى والسائلين، لقوله تعالى: ﴿ فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ۝ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ ﴾[٢].

أي: كما أحسن الله إليك فلتعامل أيها الرسول الكريم إخوانك من بني البشر كما عاملك الله.

الثانية: الشكر بالقول وهو التحدث بنعم الله المتواترة ، لقوله تعالى:﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾[٣].

---

(١) سجو الليل : تغطيته للنهار مثل ما يسجى الرجل بالثوب، والمعنى: إذا سكن بالناس. ينظر: لسان العرب (١٤/ ٣٧١)، مادة: (سجا).

(٢) الضحى: ٩ – ١١.

(٣) الضحى: ١١.

المبحث الثاني: خصائص النبي محمد ﷺ في سورة الشرح، ويشتمل على ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: شرح صدر النبي ﷺ.

قال تعالى: ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴾[(١)].

خصائص النبي ﷺ في هذه الآية:

أولا: امتنان الله على رسوله ﷺ بشرح الصدر؛ ليتسع للوحي، فيتلقى كلام الله ثابت الفؤاد راسخ العقيدة .

ثانيا: شرح صدره ﷺ ليثبت أمام باطل كلام المشركين، وسيئ قولهم؛ الذي يضيق به الصدر.

و(الشَّرْحُ والتَّشْريح): قَطْعُ اللَّحْمِ عَنِ الْعُضْوِ قَطْعاً، وَقِيلَ: قَطْعُ اللَّحْمِ عَلَى الْعَظْمِ قَطْعًا، والقِطْعَةُ مِنْهُ شَرْحة وشَرِيحة، وَقِيلَ: الشَّرِيحةُ القِطعةُ مِنَ اللَّحْمِ المُرَقَّقَةُ، والشَّرْحُ: الكَشْفُ؛ يُقَالُ: شَرَحَ فُلَانٌ أَمره أَي أَوضحه"[(٢)].

قوله تعالى:﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴾ .

في تأويل(الشرح) قولان:

القول الأول: لجمهور المفسرين وهو أن الشرح هنا هو الفسحة والبسط والتوسعة، وهو قريب من الأصل اللغوي للفظ الشرح.. وهي ـ كما يلاحظ ـ معان متقاربة ومقبولة، وعليه فالمعنى": نورناه وجعلناه فسيحا رحيبا واسعا كقوله: ﴿ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ﴾[(٣)] [(٤)]".

قال الزمخشري: "شرحنا لك صدرك، فسحناه حتى وسع هموم النبوة،

(١) الشرح: ١.

(٢) لسان العرب (٢/ ٤٩٧)، مادة (شرح).

(٣)الأنعام: ١٢٥.

(٤) تفسير ابن كثير (٨/ ٤٢٩).

أو حتى احتمل المكاره التي يتعرض لك بها كفار قومك وغيرهم، أو فسحناه بما أودعناه من العلوم والحكم، وأزلنا عنه الضيق والحرج الذي يكون مع العمى والجهل"[(١)].

القول الثاني: أن الشرح له معنى مادي[(٢)]، باحتمال أن يكون فسحاً حقيقياً لا مجازياً – للصدر؛ "لما يروى من أن جبريل عليه السلام أتاه وشق صدره، وأخرج قلبه وغسله وأنقاه من المعاصي، ثم ملأه علماً وإيماناً"[(٣)(٤)].

ـ وبتتبع السياقات التي ورد فيها لفظ (الصدر) في القرآن الكريم؛ يتبين أنه ورد في سياقات كلها معنوية، أبرزها ما يلي

---

(١) الكشاف (٤/ ٧٧٠).

(٢) وهذا الرأي نقله أبو حيان والنيسابوري، وأبو السعود بعد أن ذكروا القول الأول ونسبوه إلى الجمهور. ينظر: البحر المحيط (١٠/ ٤٩٩)، غرائب القرآن ورغائب الفرقان (٦/ ٥٢١)، إرشاد العقل السليم (٩/ ١٧٢).

(٣) عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ أَتَاهُ جِبْرِيلُ عليه السلام وَهُوَ يَلْعَبُ مَعَ الْغِلْمَانِ، فَأَخَذَهُ فَصَرَعَهُ، فَشَقَّ عَنْ قَلْبِهِ، فَاسْتَخْرَجَ الْقَلْبَ، فَاسْتَخْرَجَ مِنْهُ عَلَقَةً، فَقَالَ: هَذَا حَظُّ الشَّيْطَانِ مِنْكَ، ثُمَّ غَسَلَهُ فِي طَسْتٍ مِنْ ذَهَبٍ بِمَاءِ زَمْزَمَ، ثُمَّ لَأَمَهُ، ثُمَّ أَعَادَهُ فِي مَكَانِهِ، وَجَاءَ الْغِلْمَانُ يَسْعَوْنَ إِلَى أُمِّهِ – يَعْنِي ظِئْرَهُ – فَقَالُوا: إِنَّ مُحَمَّدًا قَدْ قُتِلَ، فَاسْتَقْبَلُوهُ وَهُوَ مُنْتَقِعُ اللَّوْنِ "، قَالَ أَنَسٌ: «وَقَدْ كُنْتُ أَرَى أَثَرَ ذَلِكَ الْمِخْيَطِ فِي صَدْرِهِ»، أخرجه مسلم في صحيحه، كِتَابُ الْإِيمَانَ، بَابُ الْإِسْرَاءِ بِرَسُولِ اللهِ ﷺ إِلَى السَّمَاوَاتِ، وَفَرْضِ الصَّلَوَاتِ،ح/ (١٦٢)، (١/ ١٤٧) .

(٤) يقول ابن حجر: وقد استنكر بعضهم وقوع شق الصدر ليلة الإسراء وقال إنما كان ذلك وهو صغير في بني سعد، ولا إنكار في ذلك.. فقد تواردت الروايات به وثبت شق الصدر أيضا عند البعثة كما أخرجه أبو نعيم في الدلائل ولكل منهما حكمة. ينظر: فتح الباري لابن حجر (٧/ ٢٠٤).

١ـ الضيق وذلك كقوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴾[١]

٢ـ وسوسة الشيطان كما في قوله: ﴿ مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ۝٤ ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ﴾[٢].

٣ـ الغل في قوله تعالى: ﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ ﴾[٣]

٤ـ الحصر، كما في قوله تعالى:﴿ أَوْ جَآءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ ﴾[٤].

٥ـ الرهبة، كما في قوله تعالى: ﴿ لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِى صُدُورِهِم مِّنَ ٱللَّهِ ﴾[٥].

"وهذا التتبع، يؤيد بعد المعنى عن التفسير المادي لشرح الصدر، ويؤيد أن (الشرح) هو هدى الإيمان، ونور الحق وراحة اليقين والسلام النفسي"[٦].

(قلت): ولا مانع من إرادة المعنيين في حق النبي ﷺ ـ أعني الشرح المعنوي والشرح المادي ـ أما المعنوي فهو المراد من هذه الآية، بدليل السياق القرآني، وأما المادي فلثبوته في السنة الصحيحة، وهو من خصوصياته ﷺ.

ـ ويلاحظ أن السورة افتتحت بأسلوب الاستفهام، فقد "دخلت همزة

(١) الحجر: ٩٧.

(٢) الناس: ٤ – ٥.

(٣) الأعراف: ٤٣، والحجر: ٤٧.

(٤) النساء: ٩٠.

(٥) الحشر: ١٣.

(٦) التفسير البياني (١/ ٦٠).

الاستفهام على النفي، فأفاد التقرير على هذه النعمة وصار المعنى: قد شرحنا لك صدرك"[١]،"وهذا التقرير مقصود به التذكير لأجل أن يراعي هذه المنة عندما يخالجه ضيق صدر مما يلقاه من أذى قوم يريد صلاحَهم وإنقاذَهم من النار ورفعَ شأنهم بين الأمم ، ليدوم على دعوته العظيمة نَشيطاً غير ذي أسف ولا كَمَد"[٢] .

ـ "وإنما خص الصدر لأنه محل أحوال النفس من العلوم والإدراكات، والمراد الامتنان ﷺ بفتح صدره وتوسيعه حتى قام بما قال به من الدعوة، وقدر على ما قدر عليه من حمل أعباء النبوة وحفظ الوحي"[٣].

ـ كما عبَّر المولى ﷻ بصيغة الجمع في قوله: ألم نشرح.. ولم يقل ألم أشرح؟ والجواب: إن حملناه على نون التعظيم، فالمعنى أن عظمة المنعم تدل على عظمة النعمة، فدل هذا على أن ذلك الشرح نعمة لا تصل العقول إلى كنه جلالتها ، ولم يقل (ألم أشرح) بصفة المفرد، وإنما على نون الجمع تعظيما لهذه النعمة، كأنه تعالى يقول لام بلام، فأنت إنما تفعل جميع الطاعات لأجلي كما قال: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾[٤]وقوله: ﴾[٤]وقـــوله: ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِيٓ ﴾[٥] ، فأنا أيضا جميع ما أفعله لأجلك"[٦].

ـ وفي ذكر الجار والمجرور قبل ذكر المشروح سلوك طريقة الإبهام

---

(١) البحر المحيط (١٠/ ٤٩٩).

(٢) التحرير والتنوير (٣٠/ ٤٠٨) .

(٣) فتح القدير(٥/ ٥٦٢).

(٤) الذاريات: ٥٦

(٥) طه: ١٤

(٦) ينظر: المفردات في غريب القرآن (ص: ٤٤٩)، ومفاتيح الغيب (٣٢/ ٢٠٦).

ـ للتشويق ـ فإنه لما ذكر فعل (نشرح)علم السامع أن ثم مشروحا، فلما وقع قوله: (لك) قوي الإبهام فازداد التشويق؛ لأن (لك) يفيد معنى شيئا لأجلك فلما وقع بعده قوله : «صدرك» تعين المشروح المترقب؛ فتمكن في الذهن كمال تمكن"[1]، وقيل: "اللام في [لَك] لام العلة، نحو قولك: فعلت ذلك لإكرامك، والمعنى: ألم نشرح لهُداك صدرك؟"[2].

المطلب الثاني: مغفرة ذنوبه ﷺ وتطهيره من أدرانها.

قوله تعالى: ﴿ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ۝ ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ ﴾ [3].

خصائص النبي محمد ﷺ في هاتين الآتين:

أولا: خص الله نبيهﷺ بعصمته من الذنوب والآثام، وتطهيره من الأدناس.

ثانيا: إزالة ما كان يعانيه ﷺ من متاعب وأثقال نتيجة حمله أعباء الرسالة.

قال تعالى: ﴿ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ۝ ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ ﴾ .

قال الراغب: " الوَضْعُ أعمّ من الحطّ، ومنه: المَوْضِعُ قال تعالى: ﴿ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ ﴾ [4]، ويقال ذلك في الحَمْل، ويقال: وَضَعَتِ الحَمْلَ فهو مَوْضُوعٌ، ومنه قوله:﴿ وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ ﴾ [5][6].

---

(١) التحرير والتنوير (٣٠/ ٤٠٩، ٤١٠).

(٢) فتوح الغيب في الكشف عن قناع الريب (حاشية الطيبي على الكشاف) (١٦/ ٤٩٧).

(٣) الشرح: ٢ – ٣.

(٤) النساء: ٤٦.

(٥) الغاشية: ١٤.

(٦) المفردات في غريب القرآن (ص: ٨٧٤).

و"النَّقْضُ: إفسادُ مَا أَبرمْتَ من عقدٍ أَو بِناءٍ، والنِّقْضُ: اسمُ البناءِ المنقوضِ إِذا هُدِمَ، وَالْأَصْل فِيهِ أَن الظّهْر إذا أثقله حِمله سُمع لَهُ نقيضٌ أَي صَوت خفيٌّ وَذَلِكَ عِنْد غَايَة الإثقال"[١].

وقد ذهب المفسرون إلى تأويل (وضع الذنب) عن النبي ﷺ إلى ثلاثة أقوال:

الأول: (وضع الذنب) بمعنى غفرانه[٢].

" فهو كقوله:﴿ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ﴾[٣] ، وهذا على قول من جوّز صغائر الذنوب على الأنبياء، أو على أن ذنوبه كانت قبل النبوّة[٤].

الثاني: "الوزر: هو أثقال النبوة وتكاليفها، ووضعها على هذا هو إعانته عليها، وتمهيد عذره بعد ما بلغ الرسالة.

الثالث: أن الوزر هو تحيره قبل النبوة، إذ كان يرى أن قومه على ضلال، ولم يأته من الله أمر واضح، (فوضعه)على هذا؛ هو بالنبوّة والهدى للشريعة الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ عبارة عن ثقل الوزر المذكور وشدته عليه"[٥]،"فهو كناية عن عصمته من الذنوب وتطهيره من الأدناس، عبّر عن عن ذلك بالحط على سبيل المبالغة في انتفاء ذلك، كما يقول القائل: رفعت

(١) لسان العرب (٧/ ٢٤٤)، مادة: (نقض)، : وتهذيب اللغة (٨/ ٢٦٩)، مادة (نقض).

(٢) وهو قول: الحسن، ومجاهد وقتادة، والضحاك. ينظر: جامع البيان (٢٤/ ٤٩٣)، تفسير البغوي (٨/ ٤٦٣)، تفسير ابن كثير (٨/ ٤٣٠).

(٣) الفتح: ٢.

(٤) ينظر: جامع البيان (٢٤/ ٤٩٣).

(٥) تفسير ابن جزي (٢/ ٤٩٢).

عنك مشقة الزيارة، لمن لم يصدر منه زيارة، على طريق المبالغة في انتفاء الزيارة منه"[1].

"والمعنى : أن الله أزال عنه كل ما كان يتحرج منه من عادات أهل الجاهلية التي لا تلائم ما فَطر الله عليه نفسه من الزكاة والسمو ولا يجد بداً من مسايرتهم عليه فوضع عنه ذلك حين أوحى إليه بالرسالة ، وكذلك ما كان يجده في أول بعثته من ثقل الوحي فيسَّره الله عليه بقوله : ﴿ وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ ﴾[2] [3]".

(قلت) والذي تستريح إليه النفس أنه ﷺ لم يكن لديه ذنب ليُغفر، وهو الأسوة الحسنة ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾[4]،واستغفاره لربه من باب الشكر، "فقد كان ﷺ يتوب، ويستغفر، ويقوم الليل حتى تورمت قدماه، وقال: «أفلا أكون عبدا شكورا»[5]، فكان كل ذلك منه شكرا لله تعالى، ورفعا لدرجاته ﷺ، كما كان إذا خرج من الخلاء قال: «غفرانك»[6].

---

(١) البحر المحيط (١٠/ ٥٠٠)، و إرشاد العقل السليم (٩/ ١٧٢).

(٢) الأعلى: ٨.

(٣) التحرير والتنوير (٣٠/ ٤١٠).

(٤)الأحزاب: ٢١.

(٥) أخرجه مسلم من حديث المغيرة بن شعبة، كتاب صِفَةِ الْقِيَامَةِ وَالْجَنَّةِ وَالنَّارِ، بَابُ إِكْثَارِ الْأَعْمَالِ وَالِاجْتِهَادِ فِي الْعِبَادَةِ ،ح (٢٨١٩)، (٤/ ٢١٧١).

(٦) أخرجه الترمذي في سننه، بَابُ مَا يَقُولُ إِذَا خَرَجَ مِنَ الْخَلَاءِ ح(٧)، ، وأحمد في مسنده ، وابن حبان في صحيحه، ح/(٢٥٢٢٠)، وقال الترمذي: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ لَا نَعْرِفُهُ إِلَّا مِنْ حَدِيثِ إِسْرَائِيلَ، عَنْ يُوسُفَ بْنِ أَبِي بُرْدَةَ. ينظر: سنن الترمذي، (١/ ١٢)، مسند أحمد (٤٢/ ١٢٤)، صحيح ابن حبان (٤/ ٢٩١).

ومعلوم أنه ليس من موجب للاستغفار، إلا ما قيل: شعوره بترك الذكر في تلك الحالة، استوجب منه ذلك، فهذا من باب: (حسنات الأبرار سيئات المقربين)، أو أن المراد مثل ما جاء في القرآن من بعض اجتهاداته ﷺ وفي سبيل الدعوة، فيرد اجتهاده فيعظم عليه: كعتاب الله له في قوله: ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ① أَن جَآءَهُ ٱلۡأَعۡمَىٰ ② وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ③ ﴾[1][2]، واجتهاده في إيمان عمه[3].. ونحو ذلك، فتُحمل الآية عليه"[4].

ـ ويلاحظ أن المولىﷻ افتتح هذه الخصيصة لنبيه ﷺ بالعطف بالواو، وذلك لأن "(الواو) هي الأداة التي تخفى الحاجة اليها، ويحتاج العطف بها إلى لُطف في الفهم، ودِقة في الإدراك، إذ لا تفيد إلاَّ مُجردَ الربط، وتَشريكَ ما بعدها لما قبلها في الحكم نحو: مضى وقت الكسل، وجاء زمن العمل، وقُم واسعَ في الخير، بخلاف العطف بغير (الواو) فيفيد مع التشريك معاني أخرى – كالترتيب مع التعقيب في (الفاء) وكالترتيب مع

---

(١) عبس: ١ – ٣.

(٢) وذلك بشأن عبد الله بن أم مكتوم.

(٣) أخرج البخاري في صحيحه، من حديث سعيد بن المسيب عن أبيه، أَنَّ أَبَا طَالِبٍ لَمَّا حَضَرَتْهُ الوَفَاةُ، دَخَلَ عَلَيْهِ النَّبِيُّ ﷺوَعِنْدَهُ أَبُو جَهْلٍ، فَقَالَ: «أَيْ عَمِّ، قُلْ لاَ إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، كَلِمَةً أُحَاجُّ لَكَ بِهَا عِنْدَ اللَّهِ» فَقَالَ أَبُو جَهْلٍ وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي أُمَيَّةَ: يَا أَبَا طَالِبٍ، تَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ عَبْدِ المُطَّلِبِ، فَلَمْ يَزَالاَ يُكَلِّمَانِهِ، حَتَّى قَالَ آخِرَ شَيْءٍ كَلَّمَهُمْ بِهِ: عَلَى مِلَّةِ عَبْدِ المُطَّلِبِ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ، مَا لَمْ أُنْهَ عَنْهُ» فَنَزَلَتْ: {مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَى مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الجَحِيمِ} [التوبة: ١١٣]. وَنَزَلَتْ: {إِنَّكَ لاَ تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ} [القصص: ٥٦]، ينظر: صحيح البخاري، كتاب مناقب الأنصار، بَابُ قِصَّةِ أَبِي طَالِبٍ ح(٣٨٨٤)، (٥/ ٥٢).

(٤) ينظر: أضواء البيان (٨/ ٥٧٧) باختصار.

التراخي في (ثُمَّ) وهكذا باقي حروف العطف التي إذا عطف بواحد منها ظهرت الفائدة، ولا يقع اشتباه في استعماله"[١].

ـ "وإنما لم يُذكر مع) ووضعنا عنك وزرك .. بأن يقال : ووضعنا لك وزرك للاستغناء بقوله : (عنك) فإنه في إفادة الإبهام ثم التفصيل مساوٍ لكلمة (لك)، وهي في إفادة العناية به تساوي كلمة (لك)؛ لأن فعل الوضع المعدَّى إلى الوزر يدل على أن الوضع عنه فكانت زيادة (عنك) إطناباً[٢] يشير إلى أن ذلك عناية به"[٣].

ـ (الذي أنقض ظهرك) أي: أثقله وأوهنه"[٤]، وهنا "استعارة تمثيلية المراد منها عصمته ﷺ من الوزر حيث لا وزر، فشبّه حاله وهو ينوء تحت ما يتخيله وزرا وليس بوزر بحال من برح به الجهد فهو يمشي مجهودا مكدورا يكاد يسقط من ثقل ما ينوء بحمله، فوضع الوزر كناية عن عصمته وتطهيره ﷺ من دنس الأوزار، ونقول في إجراء هذه الاستعارة شبّه حاله بحال من أثقله الحمل وكلله العرق وبرح به الجهد حتى إذا انحطّ عنه الحمل؛ تنفس الصعداء وانزاحت عنه الكروب والأهوال، بجامع أن كلا منهما مجهود مكروب مما يحمل يتبرم به ويتذمر منه ويربو أن ينحطّ عن كاهله ثم استعير التركيب الدال على حال المشبّه به للمشبه على سبيل

---

(١) جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع (ص: ١٨٠).

(٢) الإطناب: هو زيادة اللفظ على المعنى لفائدة، أو هو تأدية المعنى بعبارة زائدة عن متعارف أوساط البلغاء: لفائدة تقويته وتوكيده. ينظر: جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع (ص: ٢٠١).

(٣) التحرير والتنوير (٣٠/ ٤١٢) .

(٤) الجامع لأحكام القرآن (٢٠/ ١٠٦).

الاستعارة التمثيلية[١] والقرينة حالية"[٢].

(قلت): ويبدو لي أن هذا القول الثاني، هو الأقرب إلى الصواب؛ لأن الكلام هنا ليس عن الذنوب التي ارتكبها النبي ﷺ قبل البعثة– كما يرى بعض المفسرين– وإنما سياق الكلام ـ في السورة الكريمة ـ عن النعم التي أنعم بها ﷻ عليه والتي من مظاهرها توفيقه للقيام بأعباء الرسالة، وإقناع كثير من الناس بأنه على الحق، واستجابتهم له ﷺ.

وبناء على ما سبق: فإن" تفسير الوزر هنا بالحمل الثقيل، وهو الأصل في اللغة، أولى من تفسيره بما يخبر عنه بالمغفرة ولا ذكر لها في السورة، ويُحمل هذا على أنه ﷻ وضع عنه وزره الذي أنقض ظهره من حمله همّ قريش إذ لم يسلموا، أو همّ المنافقين إذ لم يخلصوا، أو همّ الإيمان إذ لم يعم عشيرته الأقربين، أو همّ العالم إذ لم يكونوا كلهم مؤمنين، أو هموم أمته المذنبين، فهذه أوزاره التي أثقلت ظهره، ﷺ، رغبة في انتشار دعوته وخشية على أمته، ولعل بين قوله عز وجل: ﴿ وَوَضَعۡنَا عَنكَ وِزۡرَكَ ﴾ ، وبين قوله: ﴿ فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمۡ إِن لَّمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَسَفًا ﴾ [٣] ، مناسبة من هذا المعنى الذي نحن فيه، وإلا فمن أين لمن غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ذنوب؟ وهل ما تقدم وما

(١) الاستعارة التمثيلية: هي تركيب استُعمل في غير ما وضع له لعلاقة المشابهة مع قرينة مانعة من إرادة معناه الأصلي. ينظر: البلاغة الواضحة (ص: ٨٥).

(٢) إعراب القرآن وبيانه (١٠/ ٥٢٢).

(٣) الكهف: ٦.

تأخر من ذنبه المغفور إلا حسنات سواه من الأبرار يراها حسنة وهو سيد المقربين يراها سيئة"[1].

المطلب الثالث: رفع ذكر النبي ﷺ إلى قيام الساعة.

قال تعالى: ﴿ وَرَفَعۡنَا لَكَ ذِكۡرَكَ ﴾[2].

خصائص النبي ﷺ في هذه الآية:

أولا: جعل الله الثناءَ الحسنَ، لنبيه ﷺ فصارَ لا يُذكرُ إلاَّ بخير.

ثانيا: ذِكْر النبي ﷺ ورفعة شأنه عند أهل الأرض، وعند أهل السماء، ويوم القيامة على رؤوس الأشهاد.

دارت أقوال أهل العلم من المفسرين حول (رفع الذكر) لنبينا ﷺ إلى معانٍ متقاربة، أجملها فيما يلي:

بادئ ذي بدء: الرفع يكون حسيا، ويكون معنويا.

أما الحسي المادي، كرفع البناء ورفع القواعد، ومنه قوله: ﴿ وَإِذۡ يَرۡفَعُ إِبۡرَٰهِـۧمُ ٱلۡقَوَاعِدَ مِنَ ٱلۡبَيۡتِ وَإِسۡمَٰعِيلُ ﴾[3].

ثم يكون معنوياً مجازياً كارتفاع الدرجة والمنزلة.. ومنه قوله تعالى: ﴿ نَرۡفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ﴾[4][5] **وقد جمع الله لنبيه ﷺ رفع الذكر بنوعيه: الحسي والمعنوي.**

---

(١) لسان العرب (٧/ ٢٤٤).

(٢) الشرح: ٤.

(٣) البقرة: ١٢٧.

(٤) يوسف: ٧٦.

(٥) التفسير البياني (١/ ٦٦).

"أما (رفع الذكر الحسي): ففي الأذان والإقامة، وفي الخطب على المنابر وافتتاحيات الكلام في الأمور الهامة، وفي مشارق الأرض ومغاربها، ولم يكن ذلك لسائر الأنبياء.

واستدلوا لذلك بالواقع فعلا، واستشهدوا بقول حسان[١] رضي الله عنه:

أغَرُّ عَلَيْهِ لِلنُّبُوَّةِ خَاتَمٌ... مِنَ اللَّهِ مَشْهُودٌ يَلُوحُ ويُشْهَدُ

وضمَّ الإلهُ اسمَ النبيّ إلى اسمهِ... إذا قَالَ في الخَمْسِ المُؤذِّنُ أشْهَدُ

وشقّ لهُ منِ اسمهِ ليجلّهُ... فذو العرشِ محمودٌ، وهذا محمدُ[٢].

ومن رفع الذكر معنى أي: من الرفعة، ذكره ﷺ في كتب الأنبياء قبله، حتى عُرف للأمم الماضية قبل مجيئه، وقد نصّ القرآن أن الله جعل الوحي ذكرا له ولقومه، في قوله تعالى:﴿ فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِيٓ أُوحِيَ إِلَيْكَۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسْتَقِيمٖ ۝٤٣ وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٞ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾[٣] ، ومعلوم أن ذكره قومه؛ ذكر له.

---

(١) حسّان بن ثابت بن المنذر بن حرام بن عمرو الخزرجي، شاعر عربي وصحابي من الأنصار، ينتمي إلى قبيلة الخزرج من أهل المدينة، كما كان شاعرًا معتبرًا يفد على ملوك آل غسان في الشام قبل إسلامه، ثم أسلم وصار شاعر الرسول ﷺ بعد الهجرة. توفي أثناء خلافة علي بن أبي طالب بين عامي ٣٥ و٤٠ هـ. ينظر: الإصابة في تمييز الصحابة (٢/ ٥٥)، وأسد الغابة (١١٥٣) ، والاستيعاب (٥٢٥).

(٢) ديوان حسان بن ثابت عليه السلام البحر: طويل، عنوان القصيدة: أتانا بعد يأس، ص (٤٧).

(٣) الزخرف: ٤٣ – ٤٤.

فتبين أن رفع ذكره ﷺ، إنما هو عن طريق الوحي، سواء كان بنصوص من توجيه الخطاب إليه بمثل: يا أيها الرسول، يا أيها النبي ، يا أيها المدثر، والتصريح باسمه في مقام الرسالة: ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ﴾ [1].

ومنها أنه قرن طاعته بطاعته: ﴿ مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ﴾ [2]، ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ ﴾ [3]، ورضاه برضاه ﴿ وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴾ [4]، وأجابته بإجابته ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ ﴾ [5]، ومحبته بمحبته: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ ﴾" [6] [7].

- ويلاحظ أن كلمة الذكر تضاف، أكثر ما تضاف إلى اسمه تعالى ظاهراً: (ذكر الله)،و (ذكر ربك).. فإذا قال الله لعبده ورسوله: {وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ}؛ بلغ بهذا أقصى المدى من الإيناس والرفعة[8].

---

(١) الفتح: ٢٩.

(٢) النساء: ٨٠.

(٣) آل عمران: ٣١.

(٤) التوبة: ٦٢.

(٥) الأنفال: ٢٤.

(٦) آل عمران: ٣١.

(٧) ينظر: تفسير عبد الرزاق (٣/ ٤٣٧)، وبحر العلوم (٣/ ٥٩٤)، والجامع لأحكام القرآن (٢٠/ ١٠٦)، والبحر المحيط في التفسير (١٠/ ٥٠٠)، وتفسير ابن جزي (٢/ ٤٩٢)، ومعارج التفكر ودقائق التدبر(٢٥٨/١)، وأضواء البيان (٨/ ٥٧٨).

(٨) التفسير البياني للقرآن الكريم (١/ ٦٨).

ـ لا يخفى دلالة لفظ "(الذكر) من علو قدر، فرفع الذكر مجاز في إلهام الناس؛ لأن يذكروه بخير، وذلك بإيجاد أسباب تلك السمعة حتى يتحدث بها الناس، استعير الرفع لحسن الذكر؛ لأن الرفع جعل الشيء عاليا لا تناله جميع الأيدي ولا تدوسه الأرجل، فقد فطر الله رسوله ﷺ على مكارم يعز وجود نوعها، ولم يبلغ أحد شأو ما بلغه منها حتى لقب في قومه بالأمين"[١].

"فإن قلت: أي فائدة في زيادة (لك)، والمعنى مستقل بدونه؟ قلت: في زيادة (لك) ما في طريقة

الإبهام والإيضاح، كأنه قيل: ألم نشرح لك، ففُهم أن ثم مشروحا، ثم قيل: صدرك، فأوضح ما علم مبهما، وكذلك (لَكَ ذِكْرَكَ)، و(عَنْكَ وِزْرَكَ)"[٢].

ثم وعد الله نبيه باليسر، وبشره بالغد المشرق فقال:﴿ فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴾[٣] أي:"إن مع اجتهاد الدنيا خير الآخرة، ومع الشدة رخاء، ومع الصبر سعة ، ومع الشقاوة سعادة ، ومع الحزونة سهولة"[٤].

"فإن قلت: إنَّ (مَعَ) للصحبة، فما معنى اصطحاب اليسر والعسر؟ قلت: أراد أن الله يصيبهم بيسر بعد العسر الذي كانوا فيه بزمان قريب، فقرّب اليسر المترقب حتى جعله كالمقارن للعسر، زيادة في التسلية وتقوية القلوب"[٥].

---

(١) التحرير والتنوير (٣٠/ ٤١٢).

(٢) الكشاف (٤/ ٧٧٠).

(٣) الشرح: ٥ – ٦.

(٤) النكت والعيون (٦/ ٢٩٨).

(٥) الكشاف (٤/ ٧٧١).

"فالتعريف في العسر تعريف العهد، أي العسر الذي عهدته وعلمته وهو من قبيل ما يسميه نحاة الكوفة بأن (أل) فيه عوض عن المضاف إليه نحو قوله تعالى: ﴿ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴾[1]

أي فإن مع عسرك يسرا، فتكون السورة كلها مقصورة على بيان كرامة النبي ﷺ عند ربه تعالى"[٢].

"ولما عدد تعالى نعمه السابقة عليه ﷺ، ووعده بتيسير ما عسره؛ أمره بأن يدأب في العبادة إذا فرغ من مثلها ولا يفتر"[٣]، فقال تعالى: ﴿ فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ ﴾[٤].

---

(١) النازعات: ٣٩.

(٢) التحرير والتنوير (٣٠/ ٤١٣).

(٣) البحر المحيط (١٠/ ٥٠١).

(٤) الشرح: ٧.

الخـــاتمــــة.. أســأل الله حسنها

بعد أن طوفت بفضل الله ومنته في رحاب سورتي الضحى والشرح، يمكن استخلاص أهم ما جاء في هذا البحث في جملة نقاط أهمها:

أولا: كانت أمثال هاتين السورتين(الضحى والشرح) مصدر أمل كبير لرسولنا ﷺ ، وتجلى هذا في عطاءٍ بلا حدود لنبيه ﷺ، والتاريخ يشهد بأن هذا هو ما حصل.. ففي كل يوم كان نجمه ﷺ يرتفع ودعوته تتوسع، وكان كل يوم أفضل من سابقه، وصدق الله وعده لنبيه محمد ﷺ بأن فتح الله القلوب لدعوته، ودخل الناس في دين الله أفواجا، وهذا تصديق لقوله تعالى: ﴿ وَلَسَوۡفَ يُعۡطِيكَ رَبُّكَ فَتَرۡضَىٰٓ ﴾ [(١)].

ثانيا: لما كان الضحى وقت اجتماع الناس وبه يكمل الأنس بعد استيحاش الليل؛ كذا كان حال الرسول ﷺ عند احتباس الوحي استيحاشا، وعند نزوله كمل به أنسه، فكما أن ذكر الضحى وهو ساعة من النهار؛ توازي جميع الليل؛ فإن النبي محمدًا ﷺ إذا وُزن؛ فإنه يوازي جميع الأنبياء فضلا ومكانة بدليل ما ذكر في ثنايا السورة من خصائصه الكريمة ﷺ.

ثالثا: الله ﷻ وكله نبيه ﷺ الى جده عبد المطلب، والله تولى تربيته من اليتم، وفي ظل انتشار الشرك، ما سجد النبي ﷺ لصنم قط، وهذا محض فضل الله وكرمه وحفظه لنبيه.

رابعا: محمد ﷺ هو أحب الخلق إلى الله تعالى؛ لما حباه ربه من خصائص لم تكن لأحد من الأنبياء قبله، ودليل ذلك ما قاله ابن عباس رضي الله عنهما. ما خلق الله وما ذرأ ولا برأ نفسا أحب إليه من محمد ﷺ،

(١) الضحى: ٥.

وما سمعته أقسم بحياة قط غيره، ثم قرأ قوله تعالى:﴿ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾[1][2].

خامسا: خصائص الله وعطاياه للنبي ﷺ كانت محض منة وهبة من الله لحبيبه ومصطفاه ﷺ، وهو ما برز في استعمال ضمير المتكلم للتعظيم ــ وهو ضمير الجماعة ــ مع أن المتكلم واحد أحد ﷻ، وذلك في (نشرح)،(ووضعنا)،(ورفعنا) للإشعار بأنها منن عظيمة امتنها على رسوله ﷺ، تناسب عظمة واهبها، ويكفي شاهدا على هذا سؤال نبي الله إبراهيم عليه السلام ربه مغفرة ذنوبه، فقال:﴿ وَالَّذِي أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ ﴾[3]، وأن يجعل له الذكر الجميل بعد موته، حيث قال:﴿ وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ ﴾[4]؛ لكن الله حقق هذه المقامات لنبيه ﷺ دون سؤال، فقال: ﴿ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ۝ الَّذِي أَنقَضَ ظَهْرَكَ ۝ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ۝ ﴾[5]وقال: ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝ لِّيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ﴾[6]. . وشتان شتان بين من يسأل فيُجاب، وبين من يُعطَى دون سؤال.

(١) الحجر: ٧٢.

(٢) أخرجه الطبري في تفسيره، ينظر: جامع البيان (١٧/ ١١٨).

(٣) الشعراء: ٨٢ .

(٤) الشعراء: ٨٤.

(٥) الشرح: ٢ – ٤.

(٦) الفتح: ١ – ٢.

وهذا نبي الله موسىﷺ سأل ربه أن يشرح صدره فقال: ﴿ .. رَبِّ ٱشْرَحْ لِي صَدْرِي ﴾[١]؛ لكن الله أعطاها لنبيه ﷺ دون سؤال فقال: ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴾[٢]، عن طريق الاستفهام التقريري.

سادسا: إن اليتم والفقر نقص في حق الخلق، فلما صار محمد ﷺ مع هذين الوصفين أكرم الخلق ؛ كان ذلك قلبا للعادة، وكان من جنس المعجزات، وتشريفا لكل اليتامى .

ـ هذ وأوصي الأخوة الأماجد من الباحثين في الدراسات القرآنية أن يطرقوا باب القرآن الكريم في بيان فضل الأنبياء والمرسلين؛ فهم صفوة خلق الله أجمعين.

وأخيرا أسأل الله الكريم رب العرش العظيم أن يجعل هذا العمل خالصا لوجهه الكريم؛ إنه بكل جميل كفيل ، وهو حسبنا ونعم الوكيل، وصلَّى الله ـ تعالى ـ وسلَّم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كثيرا..

---

(١) طه: ٢٥.

(٢) الشرح: ١.

أهم المصادر والمراجع

أولا: القرآن الكريم.

ثانيا: التفسير وعلوم القرآن:

- الإتقان في علوم القرآن، لعبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي ، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٣٩٤هـ/ ١٩٧٤ م.
- إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، لأبي السعود العمادي محمد بن محمد بن مصطفى ، دار إحياء التراث العربي – بيروت، بدون تاريخ.
- إعراب القرآن وبيانه: لمحيي الدين بن أحمد مصطفى درويش، ط: دار الإرشاد للشئون الجامعية – حمص – سورية ، ط : الرابعة ، ١٤١٥ هـ.
- أنوار التنزيل وأسرار التأويل، لناصر الدين عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي البيضاوي، تحقيق: محمد المرعشلي، ط: دار إحياء التراث العربي – بيروت، ط: الأولى – ١٤١٨ هـ.
- بحر العلوم : لأبي الليث نصر بن محمد السمرقندي، تحقيق: د. محمود مطرجي، ط: دار الفكر – بيروت، بدون تاريخ.
- البحر المحيط في التفسير: لأبي حيان محمد بن يوسف بن حيان أثير الدين الأندلسي، تحقيق: صدقي محمد جميل، ط: دار الفكر – بيروت، الطبعة: ١٤٢٠ هـ .
- البرهان في علوم القرآن، لمحمد بن عبد الله بن بهادر الزركشي ، تحقيق: محمد أبو الفضل ، ط: دار إحياء الكتب العربية عيسى البابى الحلبي وشركائه الأولى، ١٣٧٦ هـ – ١٩٥٧ م.

- البيان في عدّ آي القرآن: لعثمان بن سعيد بن عثمان بن عمر أبي عمرو الداني، تحقيق: غانم قدوري الحمد، ط: مركز المخطوطات والتراث – الكويت، ط: الأولى، ١٤١٤هـ- ١٩٩٤م.

- التبيان في أقسام القرآن : لحمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد (ابن قيم الجوزية)، تحقيق: محمد حامد الفقي، ط: دار المعرفة، بيروت، لبنان، بدون تاريخ.

- التحرير والتنوير «تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد»: لمحمد الطاهر بن عاشور التونسي، ط : الدار التونسية للنشر – تونس، ط: ١٩٨٤ هـ.

- تفسير الإيجي (جامع البيان في تفسير القرآن): لمحمد بن عبد الرحمن الحسيني الإيجي الشافعيّ دار الكتب العلمية – بيروت، ط: الأولى، ١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٤ م.

- التفسير البياني للقرآن الكريم: لعائشة محمد علي عبد الرحمن المعروفة ببنت الشاطئ، ط:دار النشر: دار المعارف – القاهرة، بدون تاريخ.

- تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار):لمحمد رشيد بن علي رضا، ط: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط: ١٩٩٠ م.

- تفسير القرآن العظيم :لأبي الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير، تحقيق: محمد حسين شمس الدين، ط: دار الكتب العلمية، منشورات محمد علي بيضون – بيروت، ط: الأولى - ١٤١٩ هـ.

- تفسير القرآن العظيم لابن أبي حاتم: لأبي محمد عبد الرحمن بن المنذر التميمي، الرازي بن أبي حاتم، تحقيق: أسعد محمد الطيب، ط: مكتبة نزار مصطفى الباز الطبعة: الثالثة - ١٤١٩ هـ.

ـ تفسير الماوردي (النكت والعيون) ، لأبي الحسن علي بن محمد ..الشهير بالماوردي ، تحقيق : السيد ابن عبد المقصود بن عبد الرحيم، ط: دار الكتب العلمية – بيروت / لبنان.

ـ تفسير المراغي: لأحمد بن مصطفى المراغي، ط: شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابى الحلبي وأولاده بمصر، ط: الأولى، ١٣٦٥هـ- ١٩٤٦م.

ـ تفسير النسفي (مدارك التنزيل وحقائق التأويل): لأبي البركات عبد الله بن أحمد النسفي، تحقيق: يوسف بديوي، ط: دار الكلم الطيب، بيروت، ط: الأولى، ١٤١٩ هـ - ١٩٩٨ م.

ـ التفسير الوسيط للقرآن الكريم: لمحمد سيد طنطاوي، ط: دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، الفجالة – القاهرة، ط: الأولى، ١٩٩٧ـ ١٩٩٨م .

ـ تفسير عبد الرزاق: لأبي بكر عبد الرزاق الصنعاني، ط: دار الكتب العلمية، تحقيق: د. محمود محمد عبده، ط : دار الكتب العلمية – بيروت، ط: الأولى، سنة ١٤١٩هـ.

ـ جامع البيان في تأويل القرآن: لمحمد بن جرير بن يزيد الطبري، تحقيق: أحمد شاكر، ط: مؤسسة الرسالة، ط: الأولى، ١٤٢٠ هـ - ٢٠٠٠ م.

ـ الجامع لأحكام القرآن: لأبي عبد الله محمد بن أحمد شمس الدين القرطبي،، تحقيق: هشام سمير البخاري، ط: دار عالم الكتب، الرياض، المملكة العربية السعودية، ط: ١٤٢٣ هـ/ ٢٠٠٣ م.

ـ دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب: لمحمد الأمين بن المختار الشنقيطي، ط : مكتبة ابن تيمية – القاهرة ، ط : الأولى ١٤١٧ هـ - ١٩٩٦م .

ـ روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني: لشهاب الدين محمود بن عبد الله الحسيني الألوسي، تحقيق: علي عطية، ط: دار الكتب العلمية –ط :الأولى، ١٤١٥ هـ

ـ زاد المسير في علم التفسير، لجمال الدين أبي الفرج عبد الرحمن محمد الجوزي، ، تحقيق: عبد الرزاق المهدي، ط: دار الكتاب العربي – بيروت، ط: الأولى – ١٤٢٢ هـ.

ـ السراج المنير في الإعانة على معرفة بعض معاني كلام ربنا الحكيم الخبير: لشمس الدين، محمد الخطيب الشربيني ، ط: مطبعة بولاق (الأميرية) – القاهرة، ط: ١٢٨٥ هـ.

ـ غرائب القرآن ورغائب الفرقان: لنظام الدين الحسن بن محمد بن حسين القمي النيسابوري، تحقيق: الشيخ زكريا عميرات، ط: دار الكتب العلميه – بيروت، ط: الأولى – ١٤١٦ هـ .

ـ فتوح الغيب في الكشف عن قناع الريب (حاشية الطيبي على الكشاف): لشرف الدين ـ الحسين ابن عبد الله الطيبي، تحقيق: د. جميل بني عطا، د. محمد عبد الرحيم سلطان العلماء، ط: جائزة دبي الدولية للقرآن الكريم، ط: الأولى، ١٤٣٤ هـ – ٢٠١٣ م.

ـ فتح القدير: لمحمد بن علي بن محمد الشوكاني اليمني ، ط: دار ابن كثير، دار الكلم الطيب – دمشق، بيروت، الطبعة: الأولى – ١٤١٤ هـ.

ـ الفرائد الحسان في عد آى القرآن: لعبد الفتاح بن عبد الغني بن محمد القاضي، ط: مكتبة الدار بالمدينة المنورة، ط: الأولى ١٤٠٤ هـ.

ـ الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، لأبي القاسم محمود بن عمرو الزمخشري جار الله ، ط: دار الكتاب العربي – بيروت، الثالثة – ١٤٠٧ هـ.

- الكشف والبيان عن تفسير القرآن: لأحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي، تحقيق: محمد بن عاشور، ط: دار إحياء التراث العربي، بيروت – لبنان، ط: الأولى ١٤٢٢، هـ – ٢٠٠٢م.
- لباب التأويل في معاني التنزيل: لعلاء الدين علي بن محمد، المعروف بالخازن، تحقيق: محمد علي شاهين، ط: دار الكتب العلمية – بيروت، ط: الأولى، ١٤١٥ هـ.
- المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: لأبي محمد عبد الحق بن غالب بن عطية الأندلسي، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد، ط دار الكتب العلمية – بيروت، ط: الأولى – ١٤٢٢ هـ
- مرشد الخلان إلى معرفة عد آي القرآن شرح وتوجيه نظم الفرائد الحسان: لعبد الرزاق علي إبراهيم موسى، طبعة المكتبة العصرية، ط: ١٤٠٩ – ١٩٨٩.
- مَصَاعِدُ النَّظَرِ للإِشْرَافِ عَلَى مَقَاصِدِ السِّوَرِ: لإبراهيم بن عمر بن حسن البقاعي، ط: مكتبة المعارف – الرياض، ط: الأولى ١٤٠٨ هـ – ١٩٨٧ م.
- معارج التفكر ودقائق التدبر، عبد الرحمن أحمد حبنكة الميداني دار القلم دمشق، ط ١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م.
- معالم التنزيل في تفسير القرآن (تفسير البغوي): لأبي محمد الحسين محمد بن الفراء البغوي ، تحقيق: عبد الرزاق المهدي، ط: دار إحياء التراث العربي – بيروت، ط : الأولى ، ١٤٢٠ هـ .
- مفاتيح الغيب = التفسير الكبير، لأبي عبد الله محمد بن عمر الرازي، الملقب بفخر الدين الرازي، ط: دار إحياء التراث العربي – بيروت، ط: الثالثة – ١٤٢٠ هـ.

ـ مناهل العرفان في علوم القرآن: لمحمد عبد العظيم الزُّرْقاني، ط: مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، الطبعة الثالثة بدون تاريخ.
ـ نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: لأبي الحسن، برهان الدين إبراهيم ب البقاعي، ط: دار الكتب العلمية – بيروت – ١٤١٥ هـ – ١٩٩٥ م.

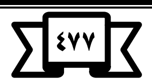
ثالثا: الحديث وعلومه

ـ الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله ﷺ وسننه وأيامه = صحيح البخاري، لمحمد بن إسماعيل البخاري، تحقيق: محمد الناصر، ط: دار طوق النجاة ،الأولى، ١٤٢٢هـ.
ـ المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله ﷺ، لمسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، ط: دار إحياء التراث العربي . بيروت.
ـ مسند الإمام أحمد بن حنبل: لأبي عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل ، تحقيق: شعيب الأرنؤوط – عادل مرشد، وآخرون، ط: مؤسسة الرسالة، ط: الأولى، ١٤٢١ هـ – ٢٠٠١ م.
ـ المعجم الأوسط، لسليمان بن أحمد أبي القاسم الطبراني، تحقيق: طارق بن عوض الله بن محمد ، عبد المحسن بن إبراهيم الحسيني، ط: دار الحرمين – القاهرة، بدون تاريخ.
ـ مجمع الزوائد ومنبع الفوائد: لأبي الحسن نور الدين علي بن سليمان الهيثمي، تحقيق :حسام الدين القدسي، ط: مكتبة القدسي، القاهرة: ١٤١٤ هـ، ١٩٩٤ م.
ـ دلائل النبوة: لأحمد بن الحسين بن علي بن موسى البيهقي، ، تحقيق: د. عبد المعطي قلعجي، ط: دار الكتب العلمية، دار الريان للتراث، ط: الأولى – ١٤٠٨ هـ – ١٩٨٨ م.

ـ سنن الترمذي: لمحمد بن عيسى الترمذي، أبو عيسى، تحقيق: أحمد محمد شاكر، وآخرون
ط: شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي – مصر، الثانية، ١٣٩٥ هـ - ١٩٧٥ م.
ـ صحيح ابن حبان(المسند الصحيح على التقاسيم والأنواع من غير وجود قطع في سندها ولا ثبوت جرح في ناقليها)، لمحمد بن حبان بن أحمد بن حبان بن معاذ بن مَعْبدَ، التميمي، أبو حاتم، الدارمي، البُستي، تحقيق: محمد علي سونمز، خالص آي دمير، بدون تاريخ.
ـ فتح الباري شرح صحيح البخاري: لأحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني الشافعي
ط: دار المعرفة – بيروت، ١٣٧٩، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي.
ـ المستدرك على الصحيحين: لأبي عبد الله الحاكم محمد النيسابوري (المتوفى: ٤٠٥هـ)
تحقيق: مصطفى عطا، ط: دار الكتب العلمية – بيروت، ط: الأولى، ١٤١١ – ١٩٩٠م.
ـ المعجم الوسيط: (مجمع اللغة العربية بالقاهرة) : ل(إبراهيم مصطفى / أحمد الزيات / حامد عبد القادر / محمد النجار)، ط: دار الدعوة، بدون تاريخ.

ثالثا: اللغة والمعاجم

ـ جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع: لأحمد بن إبراهيم بن مصطفى الهاشمي ، تحقيق: د. يوسف الصميلي، ط : المكتبة العصرية، بيروت.
ـ ديوان حسان بن ثابت: لحسان بن ثابت بن المنذر الخزرجي الأنصاري، شرح وتقديم: الأستاذ عبدأ مهنا، ط: دار الكتب العلمية، بدون تاريخ.



ـ مختار الصحاح، لمحمد بن أبي بكر بن عبد القادر الحنفي الرازي، تحقيق: يوسف الشيخ محمد، ط: المكتبة العصرية – الدار النموذجية، بيروت – صيدا، الخامسة، ١٤٢٠هـ / ١٩٩٩م.

ـ المصباح المنير في غريب الشرح الكبير: لأحمد بن محمد بن علي الفيومي ثم الحموي، ط: المكتبة العلمية – بيروت، بدون تاريخ.

ـ مجمع البحرين ومطلع النيرين (معجم لغوي شيعي): لفخر الدين الطريحي ، تحقيق: السيد أحمد الحسيني، ط: مكتبة المرتضوي – طهران/ إيران، ط: الثانية – ١٣٦٥ هـ.

ـ معجم مقاييس اللغة: لأحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، ط: دار الفكر، ط: ١٣٩٩هـ – ١٩٧٩م.

ـ لسان العرب: لمحمد بن مكرم بن علی، بن منظور الأنصاري الإفريقی، ط: دار صادر – بيروت، ط: الثالثة – ١٤١٤ هـ.

رابعا: كتب التراجم

ـ الاستيعاب في معرفة الأصحاب: لأبي عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر، تحقيق: علي محمد البجاوي، ط : دار الجيل، بيروت، ة: الأولى، ١٤١٢ هـ – ١٩٩٢ م.

ـ أسد الغابة في معرفة الصحابة : لأبي الحسن أبي الكرم عز الدين ابن الأثير، تحقيق: علي محمد معوض – عادل عبد الموجود، ط: دار الكتب العلمية، ط: الأولى: ١٤١٥هـ – ١٩٩٤ م.

ـ الإصابة في تمييز الصحابة: لأبي الفضل أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود وعلى محمد معوض، ط: دار الكتب العلمية – بيروت، ط: الأولى – ١٤١٥ هـ

ـ سير أعلام النبلاء، لشمس الدين أحمد بن عثمان بن قَايْماز الذهبي، تحقيق : مجموعة من المحققين بإشراف الشيخ شعيب الأرناؤوط، ط : مؤسسة الرسالة، الثالثة ، ١٤٠٥ هـ .

ـ الصلة في تاريخ أئمة الأندلس: لأبي القاسم خلف بن عبد الملك بن بشكوال، تحقيق: السيد عزت العطار الحسيني، ط: مكتبة الخانجي، ط: الثانية، ١٣٧٤ هـ – ١٩٥٥ م.

ـ طبقات المفسرين: لأحمد بن محمد الأدنهوي، تحقيق: سليمان بن صالح الخزي، ط: مكتبة العلوم والحكم – السعودية، الأولى، ١٤١٧هـ– ١٩٩٧م.

ـ النهاية في غريب الحديث والأثر: لمجد الدين أبي السعادات بن محمد الجزري ابن الأثير، ط: المكتبة العلمية – بيروت، ١٣٩٩هـ – ١٩٧٩م.تحقيق: طاهر أحمد الزاوى – محمود محمد الطناحي.

ـ وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، لأبي العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن خلكان، تحقيق: إحسان عباس، ط: دار صادر – بيروت، بدون تاريخ.

خامسا: السير والشمائل

ـ السيرة الحلبية (إنسان العيون في سيرة الأمين المأمون)، لعلي بن إبراهيم أبي الفرج، نور الدين ابن برهان الدين، ط: دار الكتب العلمية – بيروت، الثانية – ١٤٢٧هـ.

ـ غاية السول في خصائص الرسول ﷺ، لابن الملقن سراج الدين أبي حفص عمر بن علي بن أحمد الشافعي المصري، تحقيق: عبد الله بحر الدين ، ط: دار البشائر الإسلامية – بيروت.

فهرس الموضوعات